روايات أحلام

هزيمة القمر

جين لوغان

www.elromancia.com
مرمورية

روايات أحلام

هزيمة القمر - جين لوغان

كانت عطلتها في كينيا قد تحولت إلى كارثة. فقررت نورما أن تصل إلى وطنها، انكلترا، عن طريق العمل على يخت آلان سان-كلير. ولكن آلان كان رجلاً جذاباً جداً، ومركب صغير، ممكن أن يجمع بين شخصين معاً، وربما لهذا السبب حذّرها آلان قائلاً: «لا تضعي في رأسك أية خيالات رومانسية عني!» ولكن هذا لم يمنع نورما من الوقوع في حبه.

ثم أدركت لماذا كان يبعدها عنه، عندما اكتشفت أمر جودي ويلفورد! . . .

تصدر عن دار الفراشة

١ ـ في غابة الوحوش

العاصفة كانت ما تزال تضرب التلال خلال فترة بعد الظهر، ولكن نورما، تطلّعت إلى السماء الإفريقية الزرقاء قبل أن تخرج، وقررت أن العاصفة ما تزال بعيدة عدة أميال.

ولكنها لم تكن كذلك.

الغيوم الراعدة المنذرة بالسوء، تجمعت مثل كرات من الصوف الناعم القذر في السماء، وتكثفت بسرعة هائلة فوق تلال «سيرنيجتي»، ولم يعد الرعد صوت يأتي من البعيد، بل أصبح دوياً هائلاً بعث الخوف في قلب نورما. في مكان ما، لمعت السماء بالبرق، والرد الغاضب دوى عبر التلال والأدغال الصفراء الجافة. وارتعدت نورما، ودفعت المفتاح في لوحة إدارة سيارتها الفورد. ودار المحرك ببطء، ثم توقف، وتمتمت بالصلاة، ثم حاولت من جديد، ثم من جديد. أن تكون في قلب محمية طبيعية واسعة، تحتوي على الأسود والضباع، ليس المكان المناسب لهذا العطل.

إدارة المفتاح الآن أصبحت مجرد تكتكات لا طائل منها. فالبطارية، كما يبدو، قد استنزفت، وضربت نورما المقود بغضب. ما هذا الحظ المثالي السيىء! لا بد أن النحس يلازمها منذ فترة. ونظرت حولها إلى الأجمة الجافة اللون، بحر من العشب الجاف يمتد هنا وهناك، إلى جانب

الأشجار الشوكية وكأنما تتوقع أن ترى عيون الأسود من خلالها.

ماذا ستفعل بحق الشيطان؟ ليس مزاحاً أن تعلق وسط طريق رملية في وسط «سيرنيجيتي»، على بعد عشرة أميال من المخيم، مع سيارة معطلة، وبوجود عاصفة تتقدم بسرعة هائلة. لا بد أنها كانت مجنونة لخروجها وحدها. لقد تركت زملاءها الخمسة الآخرين يلعبون الورق في المخيم، لأنها لم تكن راغبة في إضاعة آخر يوم لها في هذه المحمية الطبيعية، سدى. فغداً سيعودون إلى «مومباسا» كي يصعدوا إلى متن زورق بيتر التجاري الكبير، ويقلع بهم عائدين إلى بريطانيا.

ونظرت إلى السماء، ولم يفتها أن تلاحظ أن الوقت ما بين البرق وصوت الرعد قد بدأ يتضاءل، فالعاصفة في طريقها إلى هنا. فهل ستستطيع العودة إلى المخيم قبل أن تنفجر؟ واستدارت في مقعدها لتنظر إلى الطريق من خلفها.. لا شيء... لا يوجد أي أثر لسيارة أخرى على الطريق الترابية الضيقة، ولا أي شكل لحيوان بري. لا شيء سوى الأراضي الإستوائية المليئة بالعشب الجاف. والأسوأ من هذا، كما أدركت نورما بمرارة، أن ما من أحدٍ قد يفكر بالخروج في مثل هذا الطقس. ولن يكون هناك أية حركة سير على الطرقات بعد ظهر هذا اليوم، لا أحد، في الواقع، سوى مجنون غبي يمكن أن يترك مخيمه.

ـ اللعنة!

وتذكرت التعليمات التي قالها لهم رئيس حرس المحمية، بأن لا تضع قدمها خارج السيارة ضمن أراضي المحمية. وأضاف:

ـ «سيرنيجيتي» ليست حديقة حيوانات، الأدغال مليئة بالحيوانات، التي تستطيع أن تهاجم البشر، فلا تخرجوا من سياراتكم مهما كانت الأسباب.

وسأله أحدهم:

ـ وإذا تعطلت السيارة؟

ـ عندها تغلق نوافذ السيارة جيداً وتجلس ساكناً فيها. فستصل النجدة

إليك عاجلاً أم آجلاً. فنحن نقوم بدوريات على الطرقات بانتظام، لذا فلا شيء يقلق. ولكن إذا خرجت من السيارة، وحاولت أن تسير، فكل ما سنجده منك بضع عظام فقط.

وقتها، أصدرت نورما أصواتاً تنم عن الرعب. ولكنها الآن، وهي تتصبب عرقاً في السيارة، بدت لها كلمات رئيس الحرس تهديدية أكثر منها واقعية، فهي لم تشاهد حتى الآن أي أثر لأي حيوان.

وعلى الفور، اتجهت أفكارها إلى رالف، كالعادة، وإلى بعض الحركات الخفية، ربما لم تكن منتبهة جيداً، ولكن ما عدا بضعة طيور وسحالي غريبة الشكل، كانت الغابة تبدو فارغة وكأنها آخر مخلوق حيّ على وجه الأرض، ودوى الرعد بقوة، ومسحت العرق عن شفتها العليا.

كم مرة يا ترى يجوبون المنطقة بالدوريات؟ مرة في اليوم؟ مرة في السنة؟ وتنهدت بيأس، لقد بدت لها فكرة زيارة أفريقيا: «كينيا ترحب بكم، بمحمياتها الطبيعية، وشواطئها الجميلة» كأفضل طريقة للتهرب من تحطم قلبها على يد رالف كلارك، ومن شكوكه التي حوّلت حياتها إلى جحيم. لقد تخيلت أشجار النخيل والمشروبات الباردة اللذيذة، والراحة، حيث تستطيع الجلوس ومراقبة الحيوانات وهي تنظر إليها، وتصغي إلى ضربات الطبول. وليس هذا.. هذه الأراضي القاحلة التي تظللها الآن الغيوم العاصفة، وهذه الحرارة التي لا تحتمل، وبالطبع لم تكن تتصور أن تعلق في سيارة مستأجرة، على بعد أميال من، اللامكان اللعين هذا، دون أمل في النجدة، ودون ماء، ومسحت جبينها، وحدّقت في الأراضي الجافة من حولها بعينيها البنيتين المضطربتين.

فكرة بأنها ستصبح مشوية مثل الكركند خلال يومين أو ثلاثة تحت حرارة الشمس، أو أن تموت جوعاً، أو أن تضربها صاعقة خلال الدقائق المقبلة، بدأ يقنعها بأن اللقاء مع حيوان متوحش وجائع أكثر إغراءً من هذا. عشرة أميال مسافة بعيدة للسير، ولكن الطريق أمامها تبدو سهلة. وهي شابة كاملة الصحة لا تزيد عن الثالثة والعشرين، حسناً. اثنان

وعشرون وثلاثة أرباع. إذا تبللت بالمطر فهذا على الأقل أفضل من الحرارة التي لا تحتمل داخل السيارة. إضافة إلى أن أحداً لن يعرف أين سيفتش عنها.

وأخذت قرارها، وأنزلت ساقيها الطويلتين من السيارة، ثم أقفلت الأبواب. وبدأت السير فوق الطريق الترابية الحمراء باتجاه المخيم. كان الجو أبرد في الخارج. ونظرت خلفها إلى السيارة الفورد الزرقاء، وهي تشعر بأنها اتخذت القرار المناسب، وابتسمت، ابتسامة كشفت عن وجه جميل، ومدّت ذراعيها. . وتصورت لو أنها بقيت في السيارة طوال اليوم! كم ستكون نهاية ساخرة لفتاة في الثالثة والعشرين، تموت جوعاً وراء مقود السيارة، سجينة داخل قفص، خائفة من الخروج إلى العالم الواسع، الرديء. علاوة على ذلك، فهناك الإثارة في السير عبر عشرة أميال من المحمية المليئة بالأسود. وسوف تروي قصتها دون اكتراث، بالطبع، وهي ترى عيني رئيس الحرس تتسعان بذهول وإعجاب وهي تخبره ببرود أن محميته الثمينة ليست خطرة كما يعتقد.

ولكن، بعد أن أوصلها الطريق الترابي الصغير إلى وراء التلة واختفت الفورد عن ناظريها، ووجدت نفسها وحيدة تماماً في أراض أفريقية غير مأهولة، بدأ قلبها يخفق، وبدت الرحلة التي أمامها طويلة جداً، وربما غير سارة. عشرة أميال! مع كل هذه الأسود من حولها! لقد شاهدتها تتمدد تحت الشمس قرب شواطىء بحيرة كبيرة. وبدت لها وكأنها قطط منزلية كبيرة. وتوقفت لتنظر إلى خلفها، مستعدة للركض بكل قواها عائدة إلى القفص الحديدي المتحرك الصغير، بأبوابه القابلة للإقفال، وسقفه المانع للمطر، ومقاعده المريحة، ودوى صوت الرعد من جديد. وأبعدت الفكرة الجبانة عن ذهنها، وتابعت سيرها بشجاعة.

وتطلعت بذهول إلى التلال المنبسطة والأشجار الشوكية، وهي ضائعة عن العالم من حولها. وخفق قلبها، لشعورها بحرارة هذه الأجمات. وأحسّت بشيء يقطع الطريق خلفها، إنها واثقة بأنها سمعت صوتاً.

ووقفت متوترة، ترهف سمعها لتسمع تكرار الصوت. هل هي مخالب أم حوافر؟ ربما يكون غزالاً صغيراً. ولمعت السماء مجدداً، ثم انفجرت، ودوي الرعد أصبح أقرب. وتلا ذلك صمت مخيف. الغابة وكأنها تنتظر. حتى حفيف الأشجار توقف. وتابعت نورما طريقها بقلق، وهي تشعر بضعفها أمام الغابة الواسعة. كانت قد اختارت أن ترتدي حذاء رعاة بقر وهو حذاء جميل طويل الساق اشترته من «موموباسا» ولكن الكعب العالي أخذ يلتوي داخل الرمال الحمراء، ومسحت العرق عن شفتها العليا ثانية، وهي تفكر ما إذا كانت الريح تحمل رائحتها، وما إذا كان هناك أنف حيوان أسود يشم بفضول هذه الرائحة الغريبة، المؤلفة من حرارة البشر، وقماش، والجلد، والعرق، وعطر «ديوريسيمو»؟

واتسعت الأرض أمامها، وعادت تفكر برالف، كانا قد اتفقا على الانفصال لمدة ثلاثة أسابيع. وكانت ستمضي هذه المدة في أفريقيا، وسيتابع هو عمله في الوطن. فماذا سينتظرها يا ترى عندما تعود؟ مواساة رقيقة؟ أنا آسف يا حبيبتي، ولكنني لا أستطيع أن أتابع معك؟ أو ليس هناك شيء من الأفكار الساخرة تتسلل إلى ذهنها عندما تفكر برالف؟

ما هذا الصوت؟ بالطبع لا يمكن لمخلوق أن يسمع وقع أقدامها فوق الرمال الناعمة؟ فكل شيء لا بد أن يكون محتمياً تحت شجرة الآن. منتظراً قدوم العاصفة. كم يا ترى سارت حتى الآن؟ ربما ميل، وربما أقل. ونظرت إلى الوراء من فوق كتفها باضطراب. سيكون رائعاً العودة إلى شاطىء البحر.

في البداية كانت ستسافر إلى كينيا بالطائرة، ولكن عندما اكتشف رالف أن صديقه، بيتر اشتون، كان ينوي السفر بقاربه من إنكلترا إلى أفريقيا أصرّ على أن هذه هي الفرصة المثالية لها. وماذا تطلب أكثر، بيتر ورفاقه الأربعة يخططون لزيارة «سيرنيجيتي». . وتستطيع الذهاب معهم، أليس كذلك؟ ولم تكن نورما متحمسة في البداية، فهي لا تثق ببيتر، ولا بالزمرة الفاسدة التي يسافر معها. إضافة إلى أن الرحلة البحرية سوف تضيّع جزءاً

من وقتها الذي ستقضيه في «سيرنيجيتي». ولكن رالف أصرّ، وكعادتها، فعلت ما طلبه منها.

الرحلة من بريطانيا كانت مريحة. واكتشف الخمسة شبان وشابات، أن نورما ليست من طبقتهم، وهذا ما جعلها تشعر بالسعادة، لأنهم تركوها تفعل ما يحلو لها. فتمددت تحت الشمس، وقرأت القصص الرومانسية، وراقبت الآخرين يمتعون أنفسهم بطريقتهم الخاصة. ولكنها كانت تتساءل ماذا سيقول والدها عن رفاقها الخمسة في رحلتها. الخمسة المشهورين... كما سمّتهم في نفسها.

على الرغم من السماء التي بدأت تظلم، كانت الطريق أمامها تلتمع من الحرارة. وأحسّت بالحرارة الزائدة. ونظرت ثانية من فوق كتفها. وكان صعباً أن تبعد الشعور المخيف عنها بأن شيئاً ما يراقبها. ربما كان من الأفضل أن تبقى في السيارة... هل سيكون لدى المشهورين الخمسة عقلاً كافياً لبدء حملة تفتيش عنها؟ ونظرت إلى ساعتها. حتى الآن، لا بد أنهم قد بدأوا خامس جولة من لعبة القمار فيما بينهم، ويضحكون بهستيريا على نكاتهم السخيفة الخاصة. وابتسمت لنفسها: كان يلزمها هذه العطلة لتعرف تماماً ما هي نوعية أصدقاء رالف. وعادت إلى النظر خلفها. قميصها «التي شيرت» كان مبللاً، ويلتصق بجسدها بشكل غير مريح، عندما تعود إلى المخيم سوف تأخذ حماماً ساخناً وتتناول شراباً بارداً. ثم ستطلب، عصيراً غنياً من...

صوت خفيف آخر جعلها تلتفت بذعر. لا بد أن شيئاً هنا. شيء كان يتبعها بين الأعشاب المرتفعة، ووقفت مسمرة في مكانها، وأذناها مرهفتان لسماع أي صوت. وفجأة، قفزت إلى ذهنها صورة مخيفة، ملأتها رعباً. الضباع! وفكرت برؤوسها الكبيرة البشعة، وفكها القوي الكبير القادر على طحن العظام وكأنها البسكويت الهش، وأسنانها القاطعة. لقد عرفت أن الضباع ليست، كما هو الرأي السائد، حيوانات تقتات ببقايا الجثث فقط، بل أنها الحيوانات المفترسة، الأكثر قساوة،

ووحشية في أفريقيا.

- أوه يا ربي...

وتنفست بصعوبة، ووجهها البيضاوي أصبح شاحباً من التوتر. وعادت تصغي..

البرق كان مثل شعلة من نار بيضاء، والرعد يدوي فوق رأسها، بصوت وكأن يد عملاق قد شقت السماء إلى نصفين. وحدّقت نورما بقلق، وبدأت أولى قطرات المطر الكثيفة تنهمر، تنتشر فوق الرمال الحمراء وكأنها بقع الدم. والطريق إلى المخيم يمتد دون نهاية فوق الأراضي الخالية المشؤومة. ما الذي دفعها للاعتقاد بأن أفريقيا كلها غابات من أشجار الموز المتمايلة؟ هذه السماء الرمادية الممتدة الأطراف تبدو دون شفقة مثلها مثل الصحراء التي تحتها تماماً، والعشب فوقها جاف لا أثر للحياة فيه. حتى الأرض بدت ظمأى، تشرب كل قطرات المطر الكثيفة التي تهطل، وسارت إلى الأمام خائفة جداً، تحت المطر المتزايد. وفي وقت قصير أصبحت مبللة تماماً، وشعرها الأشقر الطويل ملتصق بوجهها، يرشح بالماء على مؤخرة عنقها.

وهزت السماء رعدة أخرى. هذا الرعد لا يشبه الذي يحدث في بريطانيا، فهذا رعد متوحش، بدائي، عنيف جداً حتى وكأنه قادر على سحق العالم. وتقلبت العاصفة فوق الأفق من زاوية إلى أخرى، فوق رأسها. ثم سمعت ذلك الصوت وراءها ثانية، وهذه المرة كان أقوى من صوت المطر. كان صوت تهشيم العشب، ونظرت من حولها، هل كان هذا صوت المطر، أو... وبرز صوت شخير من بين العشب، وبدأت تركض.

كان قلبها ينبض من حنجرتها، ونفسها يخرج منها بألم، ووقعت فوق الرمال الحمراء، ونهضت، ثم انزلقت من جديد. المطر الشديد كان يجعل من الطريق مستنقعاً، وأخذ حذاءها الأنيق ينزلق من تحتها. ونظرت إلى الخلف، وتجمد الدم في عروقها.. شكلين أسودين كانا يقفزان

وراءها على الطريق.. الضباع!.. وأسرعت إلى الارتماء بين الأعشاب المرتفعة، لو أنها بقيت ساكنة هناك، هل سيضيعان أثرها؟ لا... سوف يلتقطان رائحتها، الرائحة البشرية المميزة التي ستقول لهما ان طعامهما أصبح قريباً منهما. وملأت الفكرة قلبها بالرعب. ووقفت على قدميها، وركضت كالعمياء في الوحل. مفتشة بيأس عن شجرة، أو أي شيء تختبيء فيه. ودون أن تشعر أخذت تصرخ باسم رالف... «رالف.. أرجوك أنجدني....».

ونظرت خلفها نظرة مجنونة، كانا يتبعانها! الشكلين الأسودين المخيفين! رأساهما منخفضان إلى الأرض، ويقتربان منها بثبات. واحسّت باليأس، لقد أصبحت مرهقة جداً، ولم تعد تستطيع الاستمرار، وسقطت على ركبتيها. وقلبها يخفق وكأنه سينفجر، وحلقها وفمها قد جفا من الخوف.

فجأة لمع ضوئين أمامها عبر المطر المنهمر، وبدأ شكل أبيض كبير يظهر أمامها. وكاد قلبها يتوقف، ثم عاد يخفق لكن من الفرح. إنها سيارة، رانج روفر، تشق طريقها في الوحل باتجاهها. وبآخر شعلة من الطاقة بداخلها، وقفت على قدميها وأخذت تلوّح. وانفجر الرعد ثانية ليصم أذنيها، وتوقفت السيارة أمامها. وقفز منها رجل طويل يرتدي حذاء مرتفع الساقين، وسترة جلدية.

وتعثرت في مشيتها مندفعة إلى ما بين ذراعيه، وأخذت تضغط وجهها على صدره الواسع، وتمتمت بالشكر، بعد أن لفّتها ذراعاه القويتان. ثم، أنهارت ساقاها، وتمسكت به حتى أنه اضطر إلى حملها وجرها إلى سيارة ليضعها في المقعد الأمامي، وأغمضت عينيها فأحست أنها على وشك الإغماء، ففتحتهما، وقال لها الرجل الأسمر الملتحي:

ـ أهلاً بك في السيارة.

ـ أحمد الله أنك أتيت!

وشهقت، وأخذت تحدق بعينيه الرماديتين، وقالت:

ـ لقد أنقذت حياتي! كانت الضباع تطاردني.. اثنان منها...

ـ الضباع؟

الصوت العميق كان غير مصدق لكلامها. وتبعت نورما نظراته. وعلى بعد عشرات الأقدام تحت المطر، كان يقف اثنان من الخنازير البرية الصغيرة، ووجههما بديا سخيفان من الوحل والمطر. واستدارا راكضين، نحو الأجمة، فصاحت:

ـ أوه..

ـ لا تبدي هكذا وكأن أملك قد خاب. فقد كان يمكن بسهولة أن يكونا من الضباع.

وسار مبتعداً ليلتف حول السيارة ويجلس وراء المقود، مضيفاً:

ـ ماذا كنت تفعلين هنا على كل الأحوال؟

ونظرت إلى الوجه الملتحي بابتسامة ودودة:

ـ لقد تعطلت سيارتي، فقررت أن أعود إلى المخيم سيراً.

ـ في هذه العاصفة؟ لوحدك ودون سلاح؟

ـ حسناً... لم أكن أعرف ما إذا كان سيأتي أحد لنجدتي هناك. وشكراً لله أنك أتيت. المسافة ليست أكثر من عشرة أميال، ولم أكن أعتقد أن العاصفة ستنفجر باكراً...

ـ ليس عليك أن تدافعي عن نفسك، إذا كنت تنوين قتل نفسك فهذا من شأنك.

وأجال النظر فيها بهدوء وأضاف:

ـ لقد أوقعتِ نفسك في ورطة أيتها الشابة.

وأدركت فجأة أن سترتها الجلدية مفقودة فقالت بحزن:

ـ أوه.. سترتي! لقد أوقعتها في مكانٍ ما على الطريق!

ـ عندما طاردتك الضباع؟

واحمرّ وجهها لهذه السخرية الرقيقة:

ـ فيها كل مالي.. ومفاتيح السيارة...

www.elromancia.com

ورفع يده السمراء القوية:

ـ أوكي.. لقد وصلتني الرسالة، سوف نلقي نظرة.

وأدار السيارة بلمسة، وسارت بهما فوق الطريق الرملي الأحمر كالدم. ونورما تحدق خارج النافذة. وهي تشعر ببعض الاضطراب لوجود هذا الغريب الهادىء قربها. وقالت:

ـ شكراً لأنك أنقذتني.. لست أدري ماذا كنت سأفعل لو لم تصل.

ـ لا شكر على واجب، لا يمكن أن يجد الإنسان غريبة جميلة تعانقه كل يوم.

ونظرت إليه بسرعة، ولكن وجهه، أو ما استطاعت أن تراه منه، كان هادئاً، وسألته:

ـ هل أمضيت وقتاً طويلاً في التفتيش؟

ـ لم أكن أفتش أبداً. في الواقع كنت في طريقي لمقابلة صديق لي.

أخلاقه كانت على ما يبدو لطيفة، واللحية الكثة أعطته منظراً متوحشاً تقريباً، وبحذائه الطري وملابسه العسكرية المموهة، يمكن أن يكون جندياً أو حطّاباً. ولكن صوته كان هادئاً ومتسلطاً، ويداه فوق المقود قويتان ومن الواضح تعوّدهما على العمل القاسي، ولكنهما لم تكونا خشنتان، والتقت عيناه الرماديتان بعينيها ثانية، وفيهما لمحة ساخرة:

ـ أرجو أن تكوني مبقية نظرك على سترتك الثمينة.

وأبعدت نظرها عنه ونظرت إلى الخارج وقد احمرّ وجهها.

ـ ها هي هناك!

وأسرعت بالنزول من السيارة مسرعة لالتقاطها، وانزلق حذاء رعاة البقر الذي ترتديه، فوجدت نفسها وهي تشهق جالسة على مؤخرتها بألم وسط بحيرة كبيرة من الوحل، واكتست باللون الأحمر، وكافحت لتقف، ونظرت إلى خلفها نحو السيارة. والتقطت سترتها وتفحصت وجود المفاتيح، ثم سارت عائدة إلى السيارة، وهي تمسك بذراعها الذي أصيب بالخدوش. وما إن فتحت الباب حتى تفحصتها عيناه بقلق وقال لها بهدوء:

ـ هل لديك فكرة عن الحالة التي أنت فيها؟

ونظرت إلى بنطلون الجينز الذي ترتديه وإلى الوحل العالق بكل شيء فيها، والسترة المتسخة على ذراعها، ومسحت شعرها الأشقر تبعده عن عينيها، ونظرت إليه.

ـ أنا آسفة!

ـ إنها ليست سيارتي.

ولكنها أحسّت بأنه يضحك عليها، وتابع:

ـ ولا أريدك أن تفسدي المقاعد فيها يا آنسة...

ـ ليستر.. نورما ليستر.

ـ آنسة ليستر، أنا واثق بأنك ستجدين مكاناً تجلسين فيه في المؤخرة، ربما فوق الإطار الإضافي؟.

وتسلقت المؤخرة بائسة. وحشرت نفسها بين علبة العدة والإطار الإضافي، وهي تشعر تماماً كأنها كلب موحل أبعده أصحابه، وسألته:

ـ ماذا عن سيارتي؟

ـ أعتقد أنها مؤجرة؟ الأفضل أن تتركيها حيث هي. واتصلي بالشركة من المخيم.

ـ أوه.. لقد أنقذت حياتي فعلاً. لو لم تجدني الضباع لضربتني صاعقة.

ـ اوكي.. لنقل إنك مدينة لي بجميل. قولي لي من هو رالف؟

ـ عفواً؟

ـ عندما رميت نفسك بين ذراعيّ كنت تهذين باسمه.

ـ أجل.. أعتقد هذا. إنه.. إنه خطيبي.

ـ آه.. ظننت أنه قديسك المنقذ.

ونظرت إليه متفحصة عبر المسافة بينها وبين المقاعد، إنه رجل ضخم عريض الكتفين، دون معدة بارزة. وعيناه اللتان تراقبان الطريق بدقة، كانتا كبيرتين ورماديتين بلون سفينة حربية، وكأنهما عينا صياد متمرس، أو

بحار. أنفه مستقيم، أنف نورماندي قوي ومتعجرف، وعظام وجهه قاسية. ولكن الجزء الأسفل من وجهه، كما لاحظت، مليء بلحية سوداء يخالطها اللون الذهبي.

ـ لقد ظننتك حارس المحمية في البداية.

ولم يرد عليها فقالت من جديد:

ـ ألست حارساً في المحمية؟

ـ ماذا؟.. آه.. لا. أنا في عطلة هنا.

ـ وهل ستمكث هنا لمدة طويلة؟

ـ لا.. أنا مسافر الليلة.

وقالت بصوت بدا عليه خيبة الأمل.

ـ أوه.. نحن مسافرون غداً.

ـ لقد كنتِ سخيفة جداً لخروجك وحدك في هذا الطقس الرديء. ألن يكون رالف غاضباً منك؟

ـ لا، في الواقع، رالف في إنكلترا. لقد أتيت إلى هنا مع بعض الأصدقاء.

ـ آه.. آخر رحلة عزوبية قبل الرباط الزوجي؟

ـ ليس بالضبط، لقد قررنا أن...

وتوقفت عن الكلام، إنها ليست مدينة لهذا الغريب بأي توضيح.

ـ عطلتانا لم تكونا في نفس الوقت. هذا كل شيء.

وكانت عينا الرجل تراقبانها عبر المرآة الأمامية، وهز كتفيه دون مبالاة، وكأنه يقول إن هذا ليس من شأنه، وبدت أمامهما البوابة الخشبية لمخيم «بوبي» عبر الأمطار، وأمامها التمثالين المشهورين لفيلين. ودلّته نورما على الكوخ الذي تشاركه مع بيتر وأصدقائه. كلمة كوخ كانت إشارة مهذبة إلى منزل ريفي كالقصر يحتوي على أفخم وسائل الراحة التي يمكن لهذا المكان توفيرها، وبينما هو يساعدها للنزول من اللاندروفر، خرجت الفتاتان، سينيثيا وجولي من الباب، وصاحت سينثيا:

ـ نورما حبيبتي أيتها العزيزة المسكينة! ماذا حدث لك؟

ـ لقد تعطلت السيارة..

ولاحظت الفرق بين حالتها المزرية وأناقة الفتاتين، اللتين كانتا تحدقان بمنقذها بفضول:

ـ هذا الرجل المحترم وجدني.

فردّت جولي:

ـ هذا لطف كبير منه.

وأخذت عيناها اللوزيتان تجولان بجسده الطويل الجذاب:

ـ أنا أدعى جولي بيركنز.

وصافحها باختصار دون أن يتكلم، محدقاً بهما، مظهرهما المائع، والذهب والماس يلمع عليهما. واستطاعت نورما أن تخمن تماماً ما كان يظنه بهما.. عاهرتين ثريتين، لهجتهما المائعة ووجهيهما الفاسدين يعلنان بصراحة عمن هما. وخرج بيتر أشتون بدوره، ووجه الوسيم محمّر ومنتفخ من الشرب. وأخرج سيكارته من فمه وحدّق بثيابها الموحلة وقال:

ـ نورما، يا فتاتي العزيزة. ماذا حدث؟ أين السيارة؟

وتطوعت سينيثيا للإجابة، وهي تبتسم:

ـ لقد تعطلت، وهذا السيد اللطيف، أوصلها إلى هنا.

ونظر إليه بيتر وقال:

ـ هذا لطف منك، أدعى بيتر أشتون.

ـ آلان سان كلير.

وأخذ الرجل الملتحي يد بيتر ليصافحها على غير إرادة منه. وارتفع حاجبا بيتر:

ـ هل أنت قريب لأموري سان كلير؟

ـ لا..

ـ حسناً أيها الرجل العزيز. تفضل إلى الداخل لتشرب شيئاً.

وقال آلان سان كلير بهدوء، وكان في وجهه لمحة سخرية وهو يتفحص

الجميع:

- أرجوك لا تزعج نفسك. أنا في الحقيقة مستعجل. عليّ أن أقابل شخصاً بعد بضع دقائق.

وتمتمت جولي، وهي تهز جفونها:

- أرجوك لا تذهب.. كوب قهوة فقط.. أرجوك؟

وقال بيتر بإصرار:

- أجل تفضل يا رجل. فنجان قهوة بسرعة. عل كلٍ، الشمس لم تغب بعد تماماً، و....

وتوقف، ثم أشار إلى الرجل بيده:

- لقد عرفتك أنت ابن جان سان كلير، أليس كذلك؟

وهز رأسه، ثم نظر إلى ساعته.

- هذا صحيح.. هل تعرف والدي؟

- لقد بنى لي قاربي. جان سان كلير أفضل مصمم للقوارب في العالم. أنا مسرور لرؤيتك يا عزيزي. والآن انظر.. عليك أن تشرب شيئاً معنا...

- أخشى أنني لا أستطيع. إضافة إلى أن نورما يجب أن تأخذ حماماً ساخناً...

وعلى الفور حدق بيتر وسينثيا بنورما، وهما يصيحان صيحة عطف زائف. وانسحب الرجل منهم، وصعد إلى سيارته، ولوّح لهم بسرعة، وقاد السيارة مبتعداً، وتبعته الفتاتان بنظراتهما وهو يبتعد، مبديتان الأسف.

وتمتمت جولي:

- من هو هذا الرجل الغامض؟

وهزت سينثيا رأسها:

- حقاً يا نورما، كيف استطعتِ التقاطه. إنه أكثر جاذبية من...

وصاح بيتر ضاحكاً:

- هاي.. أنت. لا يجب أن تفكري برجل آخر يا سينثيا. أنت معي.

لقد كانت سينثيا صديقته. وأمسك بذراعها بطريقة متملكة فالتفتت إليه ضاحكة:

- بالطبع أنا معك. ولكن من هو؟

- والده هو أكبر مصمم للقوارب في بريطانيا «مؤسسة سان كلير لبناء القوارب» إنها مؤسسة للهندسة البحرية. أما آلان فقد التقيته مرة من قبل في لندن. إنه شاب لطيف، ولكنني لم أكن أعتقد بأنه يتابع مهنة أبيه. لديّ فكرة أنه يعمل في مجال الطائرات. ربما طيار؟ على كلٍ.. إنه يبدو مستعجلاً جداً. لندخل الآن..

ونظرت جولي خلف اللاندروفر وقالت:

- يجب أن تعرّفنا عليه عندما نعود إلى لندن. إنه يبدو كشخص يجب أن أتعرف إليه. مهما كانت مهنته.

وقالت سينثيا بابتسامة صغيرة:

- سيأكلك على الإفطار يا جولي..

- وهل سيفعل؟ أحب أن أرى من سيأكل الثاني...

وقال بيتر:

- في الواقع.. لا أظنه يستطيع الاحتفاظ بك يا عزيزتي.. أذكر أن بعض الشائعات تقول بأن أعمالهم قد أفلست.

- يا للعار.. ربما لهذا السبب يربي لحيته؟ ما قولك يا سينثيا أيمكن أن يكون متخفياً عن الدائنين؟

- لا يبدو وكأن الدائنين يطاردونه. على كلٍ، لندخل، فقد ابتللت.

ودخل الجميع إلى المنزل يتحدثون، ويضحكون، تاركين نورما واقفة باضطراب عند المدخل. ولم يكن أحد منهم قلقاً عليها.

وأخذت تفكر بعيني آلان سان كلير الرماديتين، قاسيتان، هادئتان، تقولان للعالم أجمع: «اللعنة عليك!».. بالتأكيد لا يبدو رجلاً يطارده الدائنون. عندما تراه ثانية يجب أن تشكره بشكل لائق. وتنهدت وأخذت تنظر إلى مظهرها الموحل، سيكون حمام ساخن طويل نعمة من السماء،

وأخذت تنظف حذائها من الوحل، ومدّت ظهرها التعب إلى الخلف، وتبعت الآخرين إلى الداخل.

يجب عليها حقاً أن تشكره بشكل لائق. عندما تراه ثانية.

●●●

٢ ـ اذهبي إلى الجحيم!

ولكنها لم ترَ آلان سان كلير ثانية. وبعد يومين عادوا إلى «مومباسا» وكان يخت بيتر جاهزاً في ميناء اليخوت، قارب أبيض جميل يقف بين السفن المتنوعة الراسية في مياه الميناء. وكان اليخت يبدو على ما هو، لعبة رجل غني فاخرة. بيتر يعامل قاربه القوي كما يعامل معظم الرجال سياراتهم الفاخرة، قيادته للقارب في البحر لم تكن سيئة، ولكن نورما كرهت طريقته المتهورة بإطلاق العنان لسرعته داخل المرافىء وبين السفن الأخرى. بعض الأحيان يمكن أن يكون متعجرفا أكثر مما يصدق، وأحياناً غبي كولد صغير.

كان اليخت قد أُعيد تزويده بالمؤن والوقود، وأنجزوا الترتيبات مع الجمارك ودوائر الجوازات، وبدأ بيتر يقوم ببعض الترتيبات الأخيرة، وصعدت نورما إلى أعلى القارب، إلى مركز القيادة، كي تلقي نظرة على الميناء وتودع كينيا. إنها عائدة إلى بلادها، إلى رالف. هذا التفكير لم يملأها بالسرور كالعادة. فهل هي أيضاً أصبحت غير متأكدة؟ لا قدّر الله!

ونظرت إلى المدينة التي تمتد حول الميناء تحدها أشجار جوز الهند، اللامعة تحت أشعة الشمس، وكان الميناء مكتظ بالسفن من مختلف الأشكال والأنواع، ولكن على الرغم من النشاط الحيوي فيه، فإن بعض الحيطة كانت تحول دون التصادم. وبدا أن لا نهاية لأشكال القوارب

www.elromancia.com

المختلفة.. القوارب الشراعية العربية بأشرعتها المثلثة المدببة، وقوارب الصيد الصغيرة، والمعديات، واليخوت الأنيقة تتهادى بين كل هذه القوارب وكأنها سيدة مجتمع أنيقة.

وأصبح يخت بيتر، على وشك الانطلاق، وأدار بيتر المحرك الكبير الذي يسيّره، وجلس بهدوء في غرفة القيادة، وحدقت نورما للمرة الأخيرة من حولها بالميناء شاعرةً بالأسف، فهي لا تريد أبداً أن تترك كينيا، فالوقت الذي أمضته هنا كان قصيراً، ولفتت شتيمة سمعتها انتباهها إلى بيتر، الذي كان يتصارع مع المقود، متذمراً من أن الدفة عالقة. لماذا الآن من بين كل الأوقات؟ في وقت هم على وشك الإبحار؟

وجذب دواسة التخنيق، فخفق المحرك محتجاً، دافعاً نافورة ماء إلى فوق عند مؤخرة القارب، وأقبل سيلك ستانلي نحوه.

ـ هل تواجه مشكلة يا بيتر؟

ـ أستطيع تسويتها.

فهز سيلك كتفيه. وعاد إلى حيث كان يجلس يتابع شرابه، واتخذت سيثيا وجولي مركزهما المفضل على سطح السفينة، تستلقيان على وجهيهما مرتديتان أصغر بيكيني ممكن.

وأعادت نورما انتباهها إلى الميناء، وراقبت مجموعة من الأطفال تصطاد على متن قارب صيد صغير، ورست سفينة شحن أخيراً عند الرصيف ملقية مرساتها، ومراكب الصيد تهتز بحذر من حولها. وصاح بيتر:

ـ حسناً.. لقد اصطلح، تعالوا جميعاً، لنودع كينيا. بريطانيا... ها نحن قادمون.

وأطلق المحرك، فتحرك المركب مبتعداً عن الرصيف. وابتعد الأولاد الصغار بسرعة وفزع، ونظرت إليه نورما بقلق قائلة:

ـ أرجوك.. كن حذراً يا بيتر.. الميناء مكتظ جداً!

ـ أنا أعرف ماذا أفعل.

وابتسم.. وجهه كان يتصبب بالعرق. وأحست نورما بمعدتها تتقلص وصلّت كي يغادروا الميناء إلى عرض البحر دون أي حادث، فقد كان بيتر في حالة نفسية غبية وغير مكترثة، ونظر إليها من جديد فتنهدت قائلة:

ـ تمهل.. فأنت تسرع جداً..

ـ لا تكوني قلقة هكذا، دعي عمك بيتر يريك كيف يتدبر الأمر.

كان اليخت يمر بين مجموعة صغيرة من قوارب الصيد، وأجفلت نورما عندما كاد يصطدم بأقرب قارب له، ولاحظت الوجوه الغاضبة في المراكب، وضحك بيتر، ثم توقف وقطب. مدخل الميناء كان مكتظاً بصفوف من المراكب تنتظر دورها للخروج إلى عرض البحر، وخفف من سرعة القارب وهو قلق، فتوقف، وأخذ يهتز بتحرك الموج من تحته.

وأقبلت جولي وهي تلمع من أثر زيت الشمس وقالت متسائلة:

ـ ماذا ننتظر؟

وتطلعت بسخرية إلى المراكب أمامهم. فقال بيتر:

ـ هذه المراكب اللعينة، انظري إليها. لأجل الله! أريد أن أخرج إلى عرض البحر قبل الظهر.

وعادت جولي تنظر إلى المراكب:

ـ إنه منظر جميل.

ـ وما هو الجميل فيها؟ الأغبياء اللعناء يتلاعبون بيخوتهم. آمل أن يسرعوا. بهذه الطريقة سنبقى هنا طوال اليوم.

وفجأة تبدّل الريح، وامتلأت الأشرعة، فأمسك بيتر بالمقود وصاح:

ـ حسناً.. الآن هي فرصتنا. سأنفذ من خلالهم، وليذهب الدور إلى الجحيم!

وأطلق العنان للمحرك فانطلق القارب إلى الأمام، فقالت نورما بسرعة:

ـ بيتر، توقف! ستصطدم بأحدهم...

ـ فليذهب إلى الجحيم.

وشقّت مقدمة القارب الفولاذية المياه وكأنها السكين، ولكن المسافات

كانت تضيق، واستطاع أحد سائقي اليخوت أن يبتعد في الوقت المناسب ليتفادى الاصطدام، وأدار بيتر المقود ليبتعد عن يخت آخر. وأمام رعبها، شاهدت نورما قارباً ثالثاً يقطع المياه أمامهم، يخت رمادي جميل له شراع طويل أبيض وأسود وكأنه جناح النورس، وكان في مواجهة قاربهم مباشرة.

وغطت نورما وجهها وهي تصرخ:

- بيتر!

وحاول بيتر الانحراف بالمقود، والشتائم تتدفق من بين شفتيه. وتوقف القارب فجأة، ثم صوت اصطدام جعلهم يرتطمون بكل شيء في غرفة القيادة. وفتحت نورما عينيها لتشاهد الشراع الجميل يمر فوق سطح قاربهم، وصرخ أحدهم، وسمعت صوت تحطم زجاج. وأسرعت جولي لتطفىء المحرك، وفي الصمت المرعب الذي تلا، أخذت المركب تستدير بهم في دوائر، وهي ما زالت تصطدم بالمراكب أمامها. وصرخت نورما، فقد انقلب اليخت الذي اصطدموا به، وغاص الشراع الأبيض والأسود تحت سطح الماء، وهناك شخص يطفو فوق الماء وسترته الواقية من الغرق البرتقالية تلمع تحت أشعة الشمس وهو يسبح ببطء نحو يخته المضروب.

وهمست جولي:

- أتمنى أن يكون بخير..

وبجهد حاول بيتر استجماع رباطة جأشه. وقال بصوت يرتجف وقد أصبح وجهه شاحباً:

- بالطبع هو بخير.. لنخرج من هنا قبل أن يصل بوليس المرفأ..

وقفزت نورما أمامه قائلة:

- لا! هل جننت يا بيتر؟ ربما مات شخص هناك...

- أوه.. هراء. لا تتكلمي كالبلهاء. انظري الرجل يتسلق مركبه ثانية، وانظري لقد عاد اليخت إلى وضعه فوق الماء.

ونظرت لترى أن الشراع عاد إلى وضعه الطبيعي، وأخذت المراكب

تتجه إلى قاربهم بسرعة، وسمعوا الأصوات الغاضبة منها.

وقال بيتر بعصبية:

- سأهرب من هنا.

ومدّ يده إلى المقود، وأطبقت نورما قبضتها مستعدة لتضربه. ووصل مركب صغير إليهم، وصاح من بداخله:

- أنت يا من على القارب.! أنتم هناك.! لقد رأيت ما حدث، لقد صدمته عن عمد، أيها الأبله اللعين!

وردّ عليه بيتر صائحاً:

- لقد كان في طريقي.

- كلام سخيف! كنت متجهاً نحوه رأساً، الأفضل لك أن تنزل وتقدّم المساعدة أيها الشاب، أحد البحارة مصاب.

وصاحت جولي:

- أوه لا.! حقاً يا بيتر أنت غبي في بعض الأحيان!

وأقبلت سينثيا لتنضم إليهم في غرفة القيادة، وقال سيلك:

- الأفضل أن تعود إلى ذلك اليخت يا بيتر.

واحمرّ وجه بيتر، ولكنه أطلق العنان للمحرك، ثم توجه ببطء نحو اليخت المضروب، الذي كان يتهادى كالطائر المجروح فوق الماء. وتمتم قائلاً:

- أرجو أن تقفوا في صفي جميعاً لو حدثت مشاكل.

ووصل القارب إلى اليخت، فصاح بصوت حاول أن يجعله مرحاً:

- أنتم هناك! هل أنتم بخير؟

وحدّق به وجه غاضب بوحشية، له أنف نورماندى ولحية سوداء كثيفة.

- يا إلهي القدير! كان عليّ أن أعرفكم أيها الأغبياء! هل أنت سكران أيها المخبول؟

وكان المتكلم آلان سان كلير، فردّ عليه بيتر بقلق:

- خذ الأمر بروية... هل الكل بخير عندك؟

ـ لا . . ليس الكل بخير! لقد كسرت ذراع أحد أفراد طاقمي. إنه ينزف بشدة.

وللمرة الأولى شاهدت نورما الرجل مستلقياً فوق السطح، وبقعة حمراء تلطخ السطح الأبيض، وأحسّت بالغثيان، وسمعت سيلك يرسل الشتائم من بين أسنانه، وبدا آلان سان كلير وكأنه على وشك أن يقتلهم جميعاً، وصاح بهم:

ـ لأجل الله في سمائه! لا تقفوا هكذا، ساعدوني على نقله إلى مركبكم، يجب أن نأخذه إلى المستشفى، وبسرعة!

* * *

وخرج الدكتور الكيني من العنبر، وهو يخلع قفازاته الطبية، ونظر إليهم دون حماس، وأحسّت نورما بأنه يفكر بهم: أولاد أثرياء غرباء! وتفرّس في وجوههم القلقة بسخرية، وسأل بلطف:

ـ من منكم السيد سان كلير؟

وأجابه بيتر:

ـ إنه ليس هنا الآن، لقد ذهب ليجري مخابرة هاتفية، اسمي بيتر اشتون. . وأنا. .

ـ آه. . أجل أنت الرجل الذي سبب قاربه كل هذه الأضرار بذراع البحار المسكين.

ـ هذا ليس صحيحاً بالضبط يا دكتور، لقد كنت. .

وسألت نورما بقلق:

ـ كيف حال البحار؟

واستدار الدكتور إليها بعينين متعبتين، ثم ابتسم:

ـ إنه بخير، عظم ذراعه تهشم، من الجهة العليا، إنها إصابة خطرة، وفقد كثيراً من الدم، ولكن لم تحصل مضاعفات، وسوف يشفى تماماً.

وتنهدت نورما بارتياح، فنظر إليها:

ـ هل أنت صديقة له؟

ودخل في هذه اللحظة آلان سان كلير إلى غرفة الانتظار، وعيناه مسودتان من القلق.

ـ كيف حاله يا دكتور؟ أنا آلان سان كلير.

ـ إنه بخير، سوف يخرج من المستشفى بعد أسبوع، وربما أقل.

وابتعد الدكتور في الممر، فالتفت آلان إليهم، ونظرة كالحة على وجهه الملتحي:

ـ أرجو أن تكونوا مسرورين من أنفسكم.

وخطت سينثيا نحوه مبتسمة ببرود:

ـ لا تأخذ الأمور هكذا يا آلان. . .

ـ لا تدعيني آلان، اللعنة عليك!

وهزت كتفيها:

ـ سيد سان كلير إذاً. سوف يصبح بحارك بأحسن حال بعد أسبوع فلا تقلق!

ـ بأحسن حال؟. . وماذا تظنينه. . نوع من الزينة المنزلية.

والتفت إلى بيتر، الذي كان يعضّ شفته، وللحظة اعتقدت نورما بأنه سيضربه، ولكنه قال وهو يشدد على كلماته بسخرية:

ـ أما بالنسبة لك يا قبطان، يجب أن تُحاكم على قيادتك المركب وأنت سكران!

ـ تمالك نفسك. . يا رجل. .

فصاح به آلان:

ـ لقد شممت رائحة الخمر من فمك. . يا إلهي. . أتمنى لو أنكم أيها البحارة الهواة لا تقودون المراكب سوى في الأماكن الضحلة، وأن لا تخرجوا إلى عرض البحر، تعرّضون الأرواح والأطراف للخطر!

وتنحنحت نورما، وحاولت أن تبتسم قائلة:

ـ سيد سان كلير. . آلان. . نحن جميعاً آسفون لصديقك، وليختك.

وشعرت بالخجل الشديد، فحدّق بها آلان بغضب، وكأنه يحاول ردع

www.elromancia.com

ـ لا . . كنت على المركب الآخر.

نفسه عن الانفجار بوجهها. وقال أخيراً:

ـ أطفال أثرياء. أنتم أطفال أثرياء. أغبياء. سأذهب لأرى.

واندفع من بينهم، متوجهاً إلى حيث يرقد البحار في غرفته. وقالت سينثيا:

ـ إنه شاب لطيف. أعتقد بأنك قلت هذا يا بيتر، لقد ظننت أنه كان سيضربك منذ دقائق.

وقالت نورما بصوت قريب من البكاء:

ـ لم أكن سألومه لو فعل!

ونظر الجميع إليها، وقالت سينثيا بكل برود:

ـ ولماذا لا تلومينه يا نورما؟

ـ لأنه على حق، أنتم فعلاً أطفال أثرياء. أطفال لا تتحملون المسؤولية، ألا تدركون أن الرجل كان يمكن أن يُقتل؟ كان يمكن أن تقتلوهما معاً. . .

وقالت لها جولي وكأنها تنصحها:

ـ كفاك ركوباً على حصان مرتفع، لقد كنتِ أيضاً على متن المركب، وأنت تعرفين هذا.

ـ بالطبع أعرف. . وأنا خجلة جداً!

وحدّق الجميع بها لثواني، وقال بيتر وهو يخرج علبة الدخان من جيبه:

ـ لا فائدة من الاستماع إليها. .

وأشعل سيجارة ونفخ الدخان باتجاه لوحة «عدم التدخين في المستشفى»، وتابع:

ـ الأفضل لنا أن نستعيد غرفنا في الفندق لقضاء هذه الليلة. فليس من الحكمة أن نبدأ إبحارنا قبل الغد.

ونظر إلى نورما من خلال الدخان:

ـ تعالي يا نورما. . لنذهب من هنا.

ـ سأنضم إليكم فيما بعد.

وهز كتفيه دون اكتراث، ونظر إليها للحظة، وقال:

ـ لقد أتيتِ معنا لأن رالف كلارك هو صديق لي، كما تعلمين، وإلا لما سمحت لك بركوب مركبي، تذكري هذا يا نورما. لقد حصلتِ على عطلة سعيدة مجانية فوق مركبي، فلا تعانديني حظك.

وحدق بعينيها بغضب وقال:

ـ أوكي يا نورما؟ سنراك فيما بعد في الفندق. تعالوا لنذهب الآن.

وراقبتهم وهم يبتعدون، بغطرسة مولودة مع أمثالهم، وحاولت أن تقاوم اندفاع الدموع من عينيها، ثم جلست على المقعد، وأغلقت عينيها وألقت برأسها إلى الوراء، وعادت إليها ذكرى الاصطدام المريع بينما كان قارب بيتر الحديدي الحاد يصدم اليخت الأنيق. سيحتاج اليخت إلى إصلاحات مكلفة، وكانت على حق، فقد كان بالإمكان قتل الرجلين على اليخت. فماذا سيقول والدها عن هذا الأمر؟ والدها الضخم القوي كالدب، والذي علّمها الإبحار وهي لم تبلغ العاشرة بعد، والذي كان متشدداً جداً في موضوع السلامة في البحر! ولكنه في يوم من الأيام أبحر عبر المانش في يوم كثير الضباب، ولم تره من يومها ثانية. وتركها موته لوحدها تماماً، ما عدا قبر والدتها التي لم تشاهدها أبداً. ولم تستطع أن تنسى أبداً أن موته كان في البحر. أما بالنسبة لبيتر والآخرين، فالألم والمعاناة لم يعرفوهما في حياتهم. إنهم لا يفهمون، مرحهم هو كل ما يهمهم، مهما كان مبلغ الأذى الذي يسبّبونه للناس، وفتحت عينيها والباب يفتح، ودخل آلان سان كلير إلى غرفة الانتظار ووجهه حزين بمرارة، فوقفت بعصبية، وسارت نحوه لتلقاه:

ـ لقد. . عنيت ما قلته، حول أسفي لما حدث. أعلم أن الأمر لا يُغتفر. . أعني ما فعله بيتر، ولكنهم مجرد أطفال، وأنت محق بهذا، إنهم لا يعرفون شيئاً، و. . و. . .

ـ وهكذا أرسلوك لتفاوضيني. . هه؟

ـ لا . . أنا أحاول فقط أن أشرح لك. إنهم أغبياء، غير مسؤولين . . .

ولكنهم سيكبرون يوماً. وأريد أن أتأسف باسمي فقط. لقد كنت في غرفة القيادة، وكان عليّ أن أوقف بيتر. وأنا آسفة جداً . . .

ـ أجل . . حسناً، الأفضل لك أن تعودي إليهم الآن، فأنت طفلتهم المدللة، أليس كذلك؟

ـ ماذا تعني؟

واحمرّ وجهها، فقال ساخراً:

ـ أنت المسكينة بينهم، أليس كذلك؟ أرى أنك لست من طرازهم. لذا يقونك معهم من أجل القيام بأعمالهم القذرة . . . مثل الاعتذار للأغبياء الذين يصدمونهم!

ـ أنت مخطىء سيد سان كلير. أنا لست من طرازهم، ولقد جئت معهم لأن بيتر صديق لرالف، ولكنني لست الطفلة المدللة لأحد!

وفكّر للحظات ثم هز كتفيه وقال:

ـ إذاً، اذهبي من هنا، كائناً من كنتِ. أنت تجعليني أشعر بالغثيان!

واستدارت نورما مبتعدة وهي تشعر بالألم. غضبه مفهوم، ولا شيء تستطيع فعله لتهدىء هذا الغضب. . أليس هناك شيء من الحقيقة فيما قاله؟ أليست المسكينة بين هذه المجموعة الثرية بما فيها رالف كلارك؟ واستدارت إليه:

ـ قبل أن أذهب . . . هل صديقك متمالك وعيه؟

ـ تقريباً، ولماذا؟

ـ أود أن أتحدث إليه.

ـ اذهبي إلى الجحيم!

ـ لديّ شعور بأنه لن يكون غير متسامح مثلك.

وتجاوزته متجهة نحو العنبر، في زاويته البعيدة كان رجل يستلقي فوق وسائد السرير. وجهه شاحب وتعب. والأربطة تلف صدره، وذراعه ملقاة فوق الغطاء، محاطة بجهاز من الألمنيوم. وعضتّ نورما شفتها، لو أن

البقية رأوا هذا . . . رأوا نتيجة غباءهم!

وانحنت فوق الوجه الشاحب، وانفتحت العينان الغائرتان:

ـ اسمي نورما ليستر . . لقد كنت فوق المركب، الذي صدم يختكم.

وهز رأسه ببطء وعيناه زائغتان من الألم والمخدر. فتابعت:

ـ الأمر لا يغتفر لنا. أنا آسفة، من أعماق قلبي.

وحدّقت بها عيناه الزرقاوان بتعب، ثم ابتسم قليلاً. وفتح يده السليمة، فأخذتها بلطف بين يديها، فهمس:

ـ سأكون بخير. الدكتور طيب وجيد، والممرضات طيبات. سأكون بخير. . لا تقلقي.

وابتسم ثانية، وارتاحت قسمات وجهه، وهو يستغرق في النوم. ووضعت نورما يده بلطف على الغطاء، ووقفت. وكان آلان يقف إلى جانبها، يراقبها بعينيه الحزينتين. فقال لها بجفاء:

ـ لن يستطيع الإبحار قبل سنة.

واستدار على أعقابه وسار إلى الخارج. فتبعته نورما ببطء، وكان ينتظرها في غرفة الانتظار. وقال لها:

ـ اسمعي . . قولي لأشتون بأنه مجبر على دفع كل تكاليف إصلاح يختي، وسوف يكلّفه هذا غالياً. لم يمض على بناء اليخت وقت طويل. أما بالنسبة للبحار، سوف أدفع تكاليفه بنفسي. فلا أريد أن يدفع ذلك الكلب مصاريف علاجه في المستشفى. وقولي له، إذا حاول أن يناقشني، فالأفضل له أن يجد محامياً جيداً. وجيداً جداً.

واستدار لينصرف . . فقالت له نورما بهدوء:

ـ قل له هذا بنفسك.

فتوقف والتفت إليها بغضب:

ـ ماذا قلتِ؟

ـ قل له هذا بنفسك. فأنا لن أنقل رسالتك إلى أحد.

وواجهها بعضهما بغضب. وقال لها في النهاية وصوته أجش من

الغضب:

ـ حسن جداً. سأقول له بنفسي.. أين هو؟

ـ سيكون في فندق «هيلتون مومباسا».

والتقت عيناه بعينيها ببرود للحظة أخيرة. ثم ذهب...

قالت جولي بوقاحة:

ـ ولكن الغلطة ليست غلطة بيتر.. لقد كان ذاهباً...

وردّ عليها آلان ببرود:

ـ أرجوك، ابتعدي عن الموضوع، لقد كنتم مندفعين رأساً نحوي. لم يكن أمامي أية فرصة للهرب من طريقكم، سوف يكلّف إصلاح اليخت غالياً، وأنت يا أشتون سوف تدفع.

فرد عليه بيتر أشتون بغضب:

ـ اسمع.. لقد تماديت كثيراً! وعلى كل الأحوال الأضرار ليست جسيمة، مجرد بعض التحطيم في الجانب، وعلى السطح.

ـ السطح! ذلك السطح الذي تتكلم عنه هو من النايلون الصافي، يا أشتون. ويجب أن يُصب بواسطة مدفع صب خاص، وعندما أصل باليخت إلى إنكلترا، يجب أن أسحبه إلى البر وأعيد طلاءه بالنايلون.

كان حديثهما مسموعاً من العديد من الموجودين في قاعة الاستقبال في الفندق الكبير، ولاحظت نورما الوجوه التي التفتت لتحدّق بالرجل الضخم الملتحي، الذي كان الغضب الشديد واضحاً عليه، وهو يتحدث للمجموعة الصغيرة على طاولة في الزاوية. وسألت سينثيا:

ـ كم سيكلّف الإصلاح؟

ـ يمكن لكم أن تشكروا حظكم الطيب لأن ورشة والدي ستقوم بهذا العمل، فاليخت هو آخر تصميم له. ولكننا سنطالبكم فقط بالتكاليف، وستصل هذه إلى مبلغ ألفين أو ثلاثة آلاف جنيه.

وقال بيتر بوضوح:

ـ لن أدفع.. لا تستطيع أن تثبت أن ما حدث كان غلطتي...

ـ بالطبع غلطتك.. عشرون من أصحاب اليخوت شاهدوك وأنت تصدمني يا أشتون.

ـ صحيح؟ إذن عليك بإحضار كل هؤلاء إلى قاعة المحكمة، يا آلان، في لندن.

ـ إذن لن تعترف بمسؤوليتك عن الحادث؟

وابتسمت سينثيا وهي تلعق شفتيها:

ـ بالطبع لن يعترف، وسيكون أمامك عمل شاق لإثبات صحة ادعائك ضد بيتر يا سيد دي كلير. أمامك كلمتك فقط، أليس كذلك؟ ونحن ستة سنقسم على العكس.

وساد صمت متوتر، ومرة أخرى خافت نورما أن يضرب آلان سان كلير بيتر، ولكن بجهد وضبط أعصاب، أبقى آلان يديه فوق الطاولة. وقال بصوت خافت مليء بالشر:

ـ إذاً، الأفضل لك أن تتصل بمحاميك، لأن مؤسسة سان كلير للإنشاءات البحرية سوف ترفع دعوى عليك.

وابتسم بيتر:

ـ افعل ما شئت!

ومرة أخرى، شعرت نورما بحرارة الخجل ترتفع إلى وجهها بسبب تصرفهم. ونظرت إلى سينثيا بمرارة.. كما هم مصممون على إنقاذ أنفسهم، وعلى حماية بعضهم البعض، وكانوا سيتصرفون نفس التصرف لو أن البحار قُتل، بدلاً من أن تكون إصابته بليغة.

وقال آلان:

ـ أتساءل إذا كنت تعرف كم تسبب لي من مشاكل يا أشتون، فاليخت خارج لتوه من حوض البناء، أتعرف هذا؟ حتى أننا لم نبعه بعد.

ونظر حوله في الغرفة بعيني مريرتين وقال كأنما يحدث نفسه:

ـ لقد كنت أجرب اليخت لأول مرة. إنه مركب جديد، وأنتم أيها الأثرياء الأغبياء صدمتموه بسفينتكم الحربية الصغيرة.

ووقف، وأجال نظره فيهم، وقال:

ـ سنلتقي ثانية يا أشتون. والآن عليّ أن أفتش عن بحار آخر كي أوصل اليخت إلى إنكلترا. والله وحده يعرف أين يمكن أن أجد واحداً في هذا البلد.

ـ حسناً، أتمنى لك التوفيق يا آلان... أنا متأكد أنك ستجد شخصاً مناسباً.

وحدّق آلان ببيتر الذي كان يضحك، ثم تفوه بكلمات بذيئة، واستدار على أعقابه. فقالت جولي بصوت جاف:

ـ حقاً.. بعض الناس ليس عندهم تهذيب أبداً.

وأحسّت نورما بالاختناق في حنجرتها، والتقطت حقيبتها، وخرجت وراء آلان، ولم يبالِ الآخرون بخروجها، لأنهم كانوا يضحكون لقيام سينثيا بتقليد غضب آلان، ولحقت نورما بآلان عند مدخل الفندق، وأمسكت بذراعه، واستدار مستعداً للشجار وواجهت وجهه الغاضب بهدوء، فصاح بها:

ـ أنت ثانية؟ ماذا تريدين مني بحق الشيطان؟ لقد سئمت من سماعي للهجتكم المتكبرة.

ـ هل يختك... متضرر جداً؟

ـ يستطيع الإبحار، مع أنني قد لا أجد أحداً يساعدني في الإبحار للخروج من هذه البلدة اللعينة.

ـ ألا يمكن أن يبحر على يد شخص واحد؟

ـ ليس هذا آمناً، إنه بحاجة إلى اثنين على الأقل، والأفضل ثلاثة، على كلٍ، ماذا يهمك؟

ـ أشعر بمسؤوليتي.

ـ يجب عليك هذا.

وتقدمت لتسير إلى جانبه، ثم توقفا عند باب الفندق، وسألته:

ـ هل أنت مستعجل للعودة إلى بريطانيا؟

ـ أجل.. مستعجل جداً. هناك مشتري ينتظر وصول اليخت في لندن. وهو مستعجل يريد أن يشتري اليخت للاشتراك به بسباق اليخوت عبر الأطلسي. وإذا لم أعد به إلى لندن، وأصلحه خلال اثني عشر يوماً، سوف يخسر والدي هذه الصفقة أمام أكبر منافسيه.

ـ لقد أفسد هذا الحادث عليك الكثير، أليس كذلك؟

وقال آلان بحزن:

ـ لن يفسد عليّ اليخت هذا، بل عدم وجود بحارة.

ـ أنا آسفة، أستطيع أن أفهم بأنك تكرهني.. سأتركك بسلام.

فحدّق بها للحظات وهي تستعد لتنصرف. ثم قال:

ـ هذا اليخت هو أفضل ما بناه والدي.

ولاحظت نورما بأنه تعب. يقاوم الإرهاق بكل قواه:

ـ تصميم مراكب متقدمة مثل هذا اليخت وبناؤها يكلف آلاف الجنيهات. ووالدي في ضائقة مالية الآن. ومن المهم أن يحصل على صفقة مبيع في وقت قريب، وإذا لم يُباع اليخت، ليظهر للمحترفين كيف يعمل فسيذهب سدى جهد الأشهر والسنين. أجل.. لقد دمر أصدقاؤك كل شيء.

ـ وماذا ستفعل؟

وهز كتفيه:

ـ ليس لدي أية فكرة، في الوقت الراهن أحضّر الترتيبات لسفر البحار المصاب إلى إنكلترا حالما يسمح له الأطباء، وبعد ذلك، سأنتظر هنا لأجد بديلاً عنه.

وتأهب ليذهب، فسارعت للقول:

ـ آلان...

وتوقف..

ـ ماذا تريدين الآن؟

ـ آلان... إذا وجدت لك شخصاً يستطيع الإبحار معك.. هل

أستطيع أن أتصل بك في مكان ما؟

ـ أجل.. تستطيعين الاتصال بي في نادي اليخوت. اطلبي قبطان اليخت المصدوم فقط.

وهزت نورما رأسها وقالت:

ـ حظاً سعيداً.

وراقبت جسده الطويل وهو يسير نحو الظلام في الخارج، ووصلت إلى سمعها قهقهة بيتر أشتون عبر غرفة الاستقبال، إلى حيث تقف. وكأنما الصوت صدم جسدها، ووجدت نفسها تسير بسرعة بين الجموع على الرصيف، وتفكيرها مشوش، مومباسا في الليل مدينة مرحة مليئة بالألوان، عابقة بملايين العطور والأصوات. واشترت لنفسها «آيس كريم» وتابعت السير في الشوارع، تتأمل في واجهات المحلات. وأحسّت بالمرح والسعادة يملآن الجو، وتمنت لو أنها تستطيع الانضمام إلى هذا الجو.

وجلست تحت قدمي تمثال لذكرى الحرب، تتأمل الخليج المظلم، والأضواء المنبعثة من المراكب. وكالعادة، اتجهت أفكارها نحو رالف كلارك، وشعرت بأن الحادثة التي جرت بعد ظهر هذا اليوم، مقدر لها أن تزيد الخلاف بينهما، وكانت تعلم أن رالف سيقف في صف بيتر، مهما كانت الوقائع، فرالف وأصدقاؤه دائماً مرتبطون ببعضهم البعض. إنها قضية طبقية، فالناس أمثال رالف وبيتر يشكّلون جماعة متراصة على حساب الآخرين، من أمثالها. وبدأت تكتشف أن عالم رالف مليء بالأسلاك الشائكة غير المنظورة، ورالف هو كما هو، ولن يتغير ليرضيها. فهل فقدت حبه لها؟ وتساءلت برعدة عما إذا كان قد فقد هو حبها له.

على الأقل، هناك عزاء لها في تفكيرها بالعودة إلى العمل. إذ تستطيع إلهاء نفسها في رسمها، وفي إعادة تنظيف وإصلاح اللوحات الثمينة. كانت تسعد في إعادة ترميم الأعمال الفنية الكبيرة التي يتلفها الزمن، لتصبح شيئاً جميلاً ومبهجاً. فالرسم الزيتي كان اختصاصها، واسم نورما ليستر أصبح مشهوراً في عالم الفن، فبعد نجاحها في ترميم اللوحات

المشهورة «لروين» نُشرت بعض المقالات في الصحف حول عملها، وحتى أنها أجرت بعض المقابلات التلفزيونية. وكان أحد المجانين قد مزق إحدى اللوحات الثمينة بسكين، وطلب منها المعرض أن تفعل ما بوسعها لإصلاحها، واستغرقها ذلك شهر من العمل المضني، وعملت وكأنها جراح تجميل، ونجحت في عملها، حتى أدهشت الجمهور. ولكن بعد ذلك تلاشت شهرتها بالتدريج. وتمكنت في النهاية من ترك العمل في المؤسسة الفنية لتفتح استوديو خاص بها حيث نجحت تماماً فيه. والتقت برالف في منزل ذويه عندما كانت تتفحص مجموعة لوحات مائية جمعتها السيدة كلارك، ظانة أنها لوحات أصلية.

وتنهدت نورما ووقفت، تنفض ثوبها.. وعادت إلى الفندق، إلى غرفتها. واستلقت على سريرها، وهي تشعر بالبؤس دون أن تعرف لماذا. وأخذت تفكر بالوجوه على ظهر المركب، وجوه بشعة، أنانية، جبانة. كانت تعلم بأنهم أناس سطحيون، يستخدمون قناعاً من التعاطف والسحر ليغطوا شخصياتهم غير المكتملة، ولكنها الآن تراهم بصورة أوضح، تراهم كأطفال فاسدين، يستخدمون ثراءهم وامتيازاتهم، ليشقوا طريقاً لا رحمة فيه على حساب حياة الناس الآخرين.

وبدافع فجائي، التقطت الهاتف لتطلب من عاملة السنترال إعطاءها الخط الدولي. ثم طلبت رقم هاتف رالف في لندن. وعندما سمعت صوته، علمت بأنها اتصلت به في وقت غير مناسب، فقد كان صوته متوتراً وظاهر عليه نبرة السكر، مع عدائية ظاهرة.

ـ رالف.. هذه أنا.

ـ أهلاً.. أنت.. كيف حال كينيا؟

وتنهدت، إذ لم تعد راغبة في الكلام معه، وخاصة عندما يكون سكراناً. ولكنها قالت:

ـ أردت سماع صوتك.. لن أزعجك...

ـ كلام سخيف... ما آخر الأخبار؟

وترددت، ثم أخبرته عن الحادثة، واستمع إليها بصمت، ثم سألها بعدائية:

ـ إذاً؟ ماذا كنتِ تنتظرين من بيتر أن يفعل؟

فتنهدت، وهي في الحقيقة لا ترغب في مناقشة الأمر معه.

ـ حسناً. كان عليه الاعتراف بخطئه، كبداية، ولكان هذا أكثر تهذيباً...

ـ منذ متى أنتِ خبيرة بالتهذيب؟

وحاولت أن تتجاهل ملاحظته، فقالت:

ـ على كل حال، هو مدين لآلان بتكاليف الإصلاح.

وردّ عليها مارك بحدة:

ـ فهمت.. أنت إذاً خبيرة بالقانون أيضاً. أليس كذلك؟

وقالت بهدوء:

ـ قد لا أعرف شيئاً عن القانون، ولكنني أعرف أشياء كثيرة عن الإيحار، وبيتر كان مخطئاً، لا.. بل أسوأ. لقد كان مهملاً بشكل إجرامي، وكان ثملاً.

ـ قبل أن ترمي الاتهامات جزافاً، تذكري أن بيتر منحك رحلة مجانية يا نورما، فلا تعضي اليد التي تطعمك يا فتاة.

ـ أستطيع دفع مصاريفي الخاصة، وأنت تعلم أنني كنت أفضل السفر بالطائرة، لم أكن أرغب في السفر معه. أما بالنسبة له، فكان يمكن أن يقتل آلان!

ـ آلان؟ يبدو أنكما على وفاق تام، كائناً من يكون؟

ـ على الأقل هو مهذب، لقد أنقذ حياتي في «سيرنجيتي»، إذا كنت تريد أن تعرف.

ـ حقاً! أخبريني.

وأخبرته القصة باختصار، وضحك:

ـ هاه.. يبدو لي أنك وقعتِ في حب هذا المثال في الأخلاق يا

عزيزتي. ألست كذلك؟

ـ أنت ثمل يا رالف. ولا أظن أنني سأتكلم معك بالمزيد.

ـ انتظري...

وسار صمت طويل، وعندما عاد إلى الكلام، كان في صوته رنة غريبة حيرتها:

ـ نورما، يا فتاتي.. هل قال لك أحد شيئاً عني؟

ـ طوال الوقت، كنت الأول دائماً في لائحة الحديث. لماذا؟

ـ أوه... حسناً لا شيء.

ـ رالف.. ما الأمر؟

ـ حسناً، كنت أتساءل ما إذا كان لديك... ولكني لا.. لا شيء.

ـ أنت تغيظني يا رالف. إلى ماذا تشير؟ هل هناك ما يقلقك أنت.

لا بد أن هناك شيء ما في ذهنه، وهي تعرف هذا. وكان يحاول استدراجها للاستعلام عنه... إنها لعبة قديمة تعرفها عنه.

ـ بالطبع أنا منزعجة يا رالف. أنا منزعجة حول الحادثة، وأخاف من فكرة السفر معهم في المركب.

ـ لماذا يا نورما؟ هل.. حدث شيء آخر؟

وكان هناك توتر غريب في صوته، فقطبت جبينها وقالت بهدوء:

ـ إلى ماذا ترمي؟

ـ ألم يقل لك أحد شيئاً إذاً؟

ـ حول ماذا؟

وضحك بصوت غريب جعلها تجفل:

ـ أوه.. أنت تعرفين... الناس تتحدث بالإشاعات.. أليس كذلك؟

ـ ولماذا يشيعون عنك شيئاً؟

ـ لست أدري. إنها مجرد فكرة يا نورما، في حال حاول أحدهم التحدث عني وعن جولي...

ـ جولي؟ وأنت؟ ما هي هذه الإشاعات؟

www.elromancia.com

- هل تحاولين إثارتي؟

كان صوته لا يزال متوتراً، وأدركت نورما لسبب ما، إنه يظن أنها علمت شيئاً.. شيئاً حوله وحول جولي...

- رالف.. هل حدث بينك وبين جولي أي جدال؟

- لا يُعد ما جرى جدالاً يا فتاتي... اسمعي.. كان هذا مجرد صدفة!

بدأ الأمر عند قضائنا نهاية أسبوع في اسكتلندا، عندما كنت تظنين أننا ذهبنا لرؤية سباق الخيل... لا يجب أن تتظاهري. ذلك الوغد سيلك كان دائماً يغار على جولي مني. ولا بد أنه هو من أوصل الخبر لك.. كي ينتقم مني.. ماذا قال لك بالضبط؟

- رالف.. منذ متى كانت هذه العلاقة مستمرة؟

- قلت لك، منذ ذهابنا إلى اسكتلندا، ربما منذ سنة الآن.

- وهل كنتما... تتعاشران؟

- لا تكوني طفلة هكذا. بالطبع كنا نتعاشر. نورما؟ أنت وأنا.. لم نكن نفعل شيئاً كهذا. والرجل يجب أن يمرح قليلاً في حياته.

- أنت لا تعرف شيئاً سوى المرح... لقد كنا على وشك الزواج!

- ولا زلنا سنتزوج.. إذا رغبتِ في هذا.

- إذا رغبت؟

- أعتقد أنك جربتِ نفسك مع سان كلير، لتستطيعي استرجاعي. ليس عليك أن تفعلي هذا يا نورما...

- أسترجعك؟ أنت تتحدث كالأطفال.

- أتعنين.. أنه لم يحدث شيء.. لم تمنحيه نفسك؟

- وهل هذا ما تظنه بي؟

- ليس بعيداً عليك أن تفعلي هذا، أنت أحياناً كالقطة المتوحشة...

- في الواقع.. آلان عشيقي! وسأسافر معه على متن يخته!

وقال بهدوء، وبلهجة منتصرة:

- وهل أستطيع أن أفهم من هذا، أن كل شيء بيننا انتهى؟

وقالت بصوت مرتجف:

- رالف.. لقد خططت لكل هذه المحادثة.. أليس كذلك؟ أردتني أن أعرف! كنت تموت شوقاً لتخبرني عن علاقتك بجولي...

وقاطعها رالف، واستطاعت سماع الذنب في صوته:

- تمالكي نفسك.

- إذا كنت تريد التخلص من علاقتنا، فلماذا لم تقل لي هذا بصراحة؟ لم يكن يجب عليك أن تنتظر طويلاً!

- اسمعي يا نورما.. ليس من التعقل أن تتصرفي كطفلة...

وأقفلت السماعة، ودفنت رأسها بين يديها، وانفجرت بالبكاء.

عندما استعادت رباطة جأشها، عادت إلى التقاط الهاتف ثانية.. وتفكيرها مضطرب. هل سيقبل بها آلان على يخته؟ ربما لا. في الواقع، لا.. نهائياً، ولن تستطيع تحمل رفضه لها. وبدأت تتكون في ذهنها خطة مجنونة، وطلبت السنترال وطلبت منه الاتصال بنادي يخوت مومباسا، وجاءها صوت آلان جافاً وبارداً.

- نعم؟

- أظن أنني وجدت لك من يرافقك، متى تريد مغادرة مومباسا؟

- في أسرع وقت ممكن، بالطبع. هناك مد في البحر عند الثالثة صباحاً. وأستطيع أن أبحر عندها. لماذا؟

وقفز قلبها، الثالثة صباحاً! وفكرت بآلان، هل تستطيع أن تخدع هذا الرجل؟ وانقبضت معدتها، ربما تستطيع خداعه لساعات قليلة:

- هناك شاب التقيت به، تلميذ، كما أظن. وذكر أنه يفتش عن طريقة للسفر إلى وطنه. لقد سُرق كل ماله...

- حسناً من هو؟ ما اسمه؟

- أوه... طوني.. ربما طومي.. لا أذكر تماماً.

- لا يهم.. أتعلمين أين أجده؟

ـ أجل..

ـ أين؟

ـ حسناً، لقد قال إنه سيسهر الليلة، ولست أدري أين.. أتريد أن أتصل به عندما يعود؟

ـ لا.. سأتكلم معه أنا. أين يقيم؟

ـ لا أعرف أين يقيم. انظر... سأراه عندما يعود، وأرسله إليك في اليخت... هل ينفع هذا؟

ـ أعتقد هذا... انظري، هذا الشاب أليس مصدر مشاكل؟ مخدرات، أو شيء من هذا؟

ـ أوه.. لا. لا شيء من هذا النوع أبداً.

ـ وكيف تعرفين؟

وقالت بحزم:

ـ إنه لا يبدو من هذا الصنف. ولكنني أعرف أنه توّاق جداً للحصول على طريقة سفر للعودة إلى وطنه.

ـ إذاً... أبلغيه أنني سأدفع له الأجر المتعارف عليه. وحاولي أن ترسليه إلى اليخت بأسرع وقت ممكن.. أوكي؟

ـ أوكي...

ـ إذا وصل عندي قبل الثالثة، سنبحر في الحال.. هل فهمتِ؟

ـ سأقول له.

وقال آلان بصوت أقل عدائية الآن:

ـ اسمعي.. لقد نسيت اسمك.

ـ نورما ليستر.

ـ صحيح، لقد سمعتهم ينادونك نورما. إذا استطعتِ إرساله إلى اليخت الليلة، سأكون سعيداً جداً.

ـ سأفعل ما بوسعي.

ـ أجل.. حسناً.. أنا آسف إذا كنت جافاً معك.

ـ أتفهم هذا. سأذهب لأفتش عنه الآن.

وودعته، وأقفلت الهاتف. ثم ركضت خارجة لتنزل في المصعد. وهي تعدّ ما لديها من مال. هل ستستطيع أن تذهب إلى اليخت؟ سيكون ظلاماً في الخارج، وهذا من مصلحتها. والخداع لن يستمر أكثر من ساعات. وما إن يصبحا في عرض البحر، لن يستطيع أن يعود ثانية.

وجدت صيدلية مفتوحة في الشارع التالي، وأخذت سلة وبدأت تفتش عن ما ستحتاج إليه. مقص، صباغ شعر، أسبرين، بعض مستحضرات التجميل، أقراص لدوار البحر، قد تحتاج إليها في اليخت الكبير... بعض الصمغ...

وعادت إلى الفندق وهي تحمل مشترياتها، وفي المصعد، نظرت إلى ساعتها لتجد أنها العاشرة والنصف. فهمست «اللعنة» لم يعد أمامها الكثير من الوقت!

●●●

٣ ـ خدعة صغيرة

كانت الساعة تقارب الثانية والنصف فجراً عندما سار التاكسي على طول رصيف الميناء، أضواؤه الأمامية تضيء الطريق وسط الظلام الدامس. ورفع آلان سان كلير رأسه عن الخريطة التي كان يدرسها، وخفق قلبه.. هل سيكون هذا بداية لتغيير حظه.

وخرج شخص ضئيل الجسم يرتدي سترة رياضية ضخمة، من السيارة. ونظر متردداً حوله إلى اليخوت. ثم شاهد المصباح المعلق فوق اسم اليخت «ميليسا»، ولوّح لآلان، ودفع أجرة التاكسي، وحمل حقيبته نحو اليخت الجميل. ورفع آلان المصباح المتحرك ليلقي الضوء على السلم، وتقدم ليلاقي الوافد الجديد، الذي يبدو كولدٍ صغيرٍ رفيعٍ.

وقال الولد بصوت أجش:

ـ سيد سان كلير؟ اسمي طوني هيستون، لقد أرسلتني نورما.

ـ أهلاً بك..

وأخذ آلان يتفحصه، شعر أسود قصير، وجه جميل، شارب أسود، يثير السخرية. ولكن هناك شيء مألوف في وجهه. فسأله:

ـ ألم أرك في مكان ما من قبل؟

وهز الولد رأسه:

ـ لا أظن هذا.. هل صحيح أنك تبحث عن بحار؟

ـ صحيح.. هل لديك خبرة بالإبحار؟

ـ طبعاً، والدي كان يصطحبني في قاربه، عندما كان حياً. وأعرف المبادىء الأساسية.

وبدت على آلان السعادة.

ـ هل تستطيع قراءة البوصلة؟

ـ بشكل جيد، وأستطيع الطهو والتنظيف أيضاً، وأستطيع العمل على الرادار أيضاً.

ـ والخرائط؟

ـ كما قلت لك يا قبطان، أعرف المبادىء الأساسية، وسأتعلم سريعاً ما لا أعرفه.

ونظر آلان إلى الولد باهتمام متزايد، إنه في الواقع صغير الجسم، تقريباً كالفتاة.. وقال له:

ـ أنا لست مليونيراً يا طوني، كل ما أستطيع دفعه هو الأجر المتعارف عليه حسب التعرفة الدولية.

ـ سيكون هذا رائعاً يا قبطان، كل ما أريده أن أصل إلى وطني.

ـ إذاً، كل شيء سيكون على ما يرام، المد سيبدأ، بعد عشر دقائق.. أتستطيع السفر معي فوراً؟ كما أنت؟

ـ طبعاً..

وابتسم ابتسامة جميلة، ولكن، هذا الشارب: إنه حقاً مضحك! لا بد أن الولد المسكين ربّاه ليبدو أكبر سناً وأكثر رجولة، ولكن عيناه البنيتان اللطيفتان كانتا ثابتتين تماماً، ومع أن جسمه صغير، يلفّه في ثياب تبدو كبيرة عليه، فإن هناك شيء ما فيه بدأ يجذب آلان. ونظر إلى يديه القذرتين، كانتا نحيلتين أيضاً، ورقيقتين تقريباً.

ـ كم عمرك يا طوني؟

ـ عشرون سنة يا قبطان.

ـ هيا... أنت لا تبدو في الثامنة عشرة. كم عمرك؟ خمسة عشر؟ ستة

عشر؟.

ـ أنا في السابعة عشر يا قبطان.

ولكن آلان عرف بأنه يكذب.

ـ هل أنت واقع في أي نوع من المشاكل؟ ما الأمر.. مع البوليس؟

ـ لا.. لا شيء من هذا. أنا نظيف، أقسم لك، يمكنك القول إن الأمر.. مشاكل عائلية!

ـ أي نوع من المشاكل العائلية؟

ـ حسناً، إذا كنت مصراً أن تعرف. والداي ماتا منذ مدة. وبقي لي عمتي.. وهي مقامرة و...

ـ حسناً. ليس عليك أن تقول المزيد. سوف آخذك معي يا طوني.. دون أي سؤال.. أوكي؟

ـ هذا عظيم!

وأحسّ آلان بالأسف عليه، ولد مسكين دون منزل يأويه، ومسرور لأنه وجد صديقاً.

ـ طوني.. اسمي آلان.. أو «قبطان».

ـ أنت على حق يا قبطان.

وضحك الولد، مظهراً أسناناً بيضاء جميلة. ومرة ثانية، اعتقد آلان أن هناك شيئاً مألوفاً في ابتسامته.. ما هو يا ترى؟ وردّ له الابتسامة وصافحه. وأجفل الولد.. مسكين! إنه حقاً ليس قوياً.

ـ هل ستكون على ما يرام يا طوني؟

ـ طبعاً يا قبطان، أنا قوي كالحصان، صدقاً.

وأدار آلان وجهه ليخفي ابتسامة.

ـ أمامنا خمس دقائق لنلتقط المد. ضع حقائبك في الكابين، ولنبدأ العمل!

ـ حاضر يا سيدي.

وأقلع اليخت «ميليسا» نحو البحر، وامتلأ شراعه برياح الصباح الباكر، التي تندفع من أراضي أفريقيا نحو البحر. وامتد البحر أمام اليخت الرمادي وكأنه صفحة من الفضة السائلة، وملأت نفس نورما الغبطة لرؤية هذا الجمال، وأطاعت تعليمات آلان بدقة وصمت، وما إن حلّت الساعة السادسة حتى أصبحت أفريقيا وكأنها بقعة حمراء طويلة في الأفق. ثم أشرقت الشمس وبدا البحر بلونه الأزرق العميق، وتحولت السماء إلى لون النحاس. وبدأ الحر سريعاً. وغسلت مياه البحر أي أثر لرائحة الأرض على اليخت.

ونزلت نورما إلى المطبخ، بينما أخذ آلان يدرس الخرائط. ونظر بدهشة عندما أحضرت له اللحم والبيض الساخن للإفطار:

ـ هذه تبدو أجمل من مليون دولار.. أين تعلمت الطهو؟

ـ لقد تعلمته سريعاً.. كان عليّ أن أتعلمه بعد وفاة والدتي. فوالدي لم يكن يعرف شيئاً عن الطبخ، رحم الله روحه.

ـ لقد توفيت والدتي عندما كنت صغيراً أيضاً، ولم يبق سواي مع والدي مثلك تماماً.

ـ حقاً.. وماذا يعمل والدك؟

ـ مصمم مراكب.. لقد صمم هذه مثلاً.

ـ جيد.. وأنت يا قبطان؟ هل أنت في نفس المهنة؟

ـ لا.. ليس تماماً. أنا أصمم الطائرات وليس المراكب.

ـ يا إلهي!

ـ هذه حقيقة، أنا أصمم الطائرات النفاثة الخاصة للأثرياء، والهليوكوبتر، وما شابه.

ـ أراهن بأنك ثري.

وأخذت تربت على شاربها، الذي بدأ الصمغ فيه يؤلمها. متى ستكشف عن نفسها؟ ليس قبل أن يبتعد جداً عن الشواطىء.

وابتسم آلان:

ـ لا . . أنا لست ثرياً يا طوني . أكسب رزقي، هذا كل شيء. ولكن آمل أن تتحسن الظروف قريباً، بعد أن أتخلص من كل ديوني. انظر، لماذا لا تخلع هذه السترة، سوف يصبح الحر لا يطاق بعد قليل، والأفضل أن تبقى في التي شيرت.

ـ آه. . . أجل، بعد دقائق لدي رشح بسيط و. . .

ـ ولماذا لم تقل؟ سأحضر لك دواء، هل تشعر بالصداع؟

ـ لا . . أعني . . أجل . .

ـ أيها الولد المسكين . . هاك، خذ قرصين من هذا.

وابتلعت نورما الأسبرين على مضض، مع قليل من الماء أحضره في كوب لها. وأخذ منها الكوب ليرمي ما تبقى من ماء فيه، ثم توقف وحدّق مذهولاً فيه، كان في الماء شيء يطفو، شيء كالشعر، إنه الشارب، والتقت عيناه بعينيها بذهول، ثم أصبح وجهه قاسياً وبارداً.

ـ ما هذا بحق الجحيم؟

وتنحنت نورما بعصبية، على الأقل تستطيع الآن التخلي عن صوت «طوني» الأجش، وقالت:

ـ الأفضل أن أشرح لك سيد سان كلير.

ـ يا إلهي . . أنتِ؟ نورما ليستر؟

ـ أجل . .

وتقدم نحوها ووجهه متجهم من الغضب، وللحظة ظنته سيضربها. فتراجعت قليلاً. وأمسك بذراعيها بيدين قويتين، فشهقت . .

ـ ما نوع هذا المزاح؟ من أرسلك لتنفذي هذه اللعبة؟ أيتها الثعلبة الصغيرة؟

ـ لم يرسلني أحد . . . أنت تؤلم ذراعي . . .

ـ أنا أؤلمك عن قصد، ماذا تقصدين بحق الشيطان بخداعي هكذا؟

ـ لأنني أعرف بأنك لن تقبل بي لو اقترحت عليك مرافقتك، أرجوك اتركني!

ـ أتركك؟ يجب أن أرميك إلى سمك القرش!

ـ أردت فقط مساعدتك، على كل، أنا مدينة لك بجميل، أتذكر؟

ـ جميل؟ لم أكن يائساً إلى هذا الحد . . هيا اخفضي الشراع يا آنسة ليستر، سنعود إلى مومباسا.

ـ أرجوك انتظر . . ليس من فائدة في الرجوع الآن.

ـ بلى . . هناك فائدة، سوف أعيدك إلى الشاطىء وأسلّمك إلى أصدقائك، أيتها الهاربة الصغيرة!

ـ سوف يكونون قد أبحروا عندما نصل، وأنا، لن أصعد إلى متن قاربهم ثانية.

ـ لا يهمني أين تذهبين. طالما يكون هذا خارج مركبي. وإذا لم تنزلي الشراع سأفعل بنفسي.

ـ أنت لا تستطيع رؤية شيء أبعد من غضبك، أليس كذلك؟ فأنت واثق جداً من صواب آرائك، ولكن، ماذا ستفعل بعد أن توصلني إلى الشاطىء؟ هل ستجلس حتى تتعفن لأسابيع في مومباسا؟ ألا تدين لوالدك بشيء؟

ـ أنا أقرر بماذا أدين، ولمن، لن أخاطر بإهلاك والدي بوجود طفلة فاسدة مثلك!

ـ لقد رأيت بنفسك ما أستطيع عمله هذا الصباح . . جزء مما قلته لك صحيح . . فأنا أعرف تماماً قواعد الإبحار.

ـ نعم . . لدي إثبات واضح لمهارتك.

وأشار إلى الجزء المحطم من سطح المركب. فقالت وقد بدأ غضبها يتصاعد:

ـ لم أكن أنا من يقود تلك المركب، يا سيد سان كلير. فلماذا تلومني؟ لقد قلت بنفسك إنني لست من طرازهم، وإذا كنت تريد أن تعرف، لقد حاولت إيقاف بيتر عندما كان متجهاً لصدم يختك.

ـ ولكنك لم تنجحي، أليس كذلك؟

www.elromancia.com

ـ ليست هذه غلطتي . . لقد فعلت ما بوسعي .

ـ إذا كان ما حدث، أفضل ما بوسعك، فأنا أكره أن أشاهد ما ستفعلينه بمركبي!

ـ إذن . . أرجعني إلى مومباسا، وتعفّن هناك إذا كنت تريد هذا .

ـ أفضل أن أتعفن في مومباسا بدل أن أغرق على يديك .

وردّت عليه نورما بهدوء:

ـ لست بحاجة لدروس من أحد حول السلامة البحرية، وهذا جزء من قصتي، حقيقي أيضاً، والدي غرق في المانش منذ خمس سنوات .

وحدّق بها، وقد بدأ الغضب يتلاشى من عينيه:

ـ أنا آسف . . لم أكن أعرف هذا .

ـ وعلّمني الإبحار عندما كنت طفلة، أستطيع فعلاً مساعدتك يا سيد سان كلير .

ـ لقد أفسدتِ شعرك الجميل الأشقر . هل يمكن غسل هذا الصباغ؟

ـ لست أدري .

وحدّق بها وفي عينيه ارتياب:

ـ ولماذا تريدين مساعدتي؟ يا آنسة . . ليستر؟

ـ لأنني كنت على المركب، وأريد أن أدفع لك قسماً من الأضرار، وخاصة أن بيتر آشتون لا يبدو من المحتمل أن يفي بالتزاماته، ولكن أيضاً، لأنني مدينة لك بجميل . لن تستطيع معرفة مدى سعادتي عندما رأيت الرانج روفر يظهر من خلال المطر ذلك اليوم . لا أظن بأنني كنت مذعورة هكذا طوال حياتي .

ـ وماذا عن رالف، وبقية أصدقائك؟ أعتقد أنهم لا يعرفون شيئاً عن مشروعك هذا؟

ـ لقد تركت رسالة لهم، ولا أظن بأنهم سيفتقدوني كثيراً .

ـ والعزيز رالف؟ ماذا سيقول عندما يسمع بهذا الأمر؟

ـ في الواقع . . لست أهتم بما سيقول .

خلال الصمت صفّرت الريح عبر الأشرعة، وأصبحت الشمس مرتفعة الآن، وأخذت تعرق داخل السترة التي سرقتها من غرفة بيتر أشتون .

ـ سوف تتعين أكثر على متن «ميليسا» . . وسوف تكون طريق العودة أطول .

ـ عملي ينتظرني، وإذا لم ترجعني إلى مومباسا سوف تتمكّن من الوصول «بميليسا» في وقت أسرع .

وعلمت بأنه سيوافق . وتفحصها بعينيه الجميلتين، وكأنه يراها للمرة الأولى، وقال بمرارة:

ـ يبدو أن ليس هناك ما أستطيع فعله . . وعليك أن تحاولي على الأقل التعويض عن بعض الأضرار التي ألحقها زملاؤك الأغبياء . . ولأجل الله، حاولي أن تفعلي شيئاً لشعرك، لم تكوني سيئة جداً كطوني . . ولكن كنورما ليستر . . . أنت مريعة!

ـ سأبذل جهدي .

وابتسمت له بلطف، مما جعلها تبدو أجمل، على الرغم من شعرها البشع . ولكن آلان لم يكن غافلاً عن الجمال الذي في وجهها .

ـ سأراقبك باستمرار، فلا تفعلي أي شيء خاطىء . أفهمتِ هذا؟

ـ حاضر يا سيدي . هل أنهيت فطورك يا قبطان؟

. . . . .

وعادت إلى كابينتها . ووضعت رأسها فوق المغسلة، وبلّلته ثم غسلته بالصابون . عدة غسلات قوية قاسية أزالت آخر أثر للصباغ، وعاد شعرها ليكتسب اللون العسلي الذهبي الأصلي، لون جميل، غني، كان والدها دائماً يسميه «العسل البري» ولكنه أصبح قصيراً بشكل محزن، وأحسّت بالألم لفقدان خصله الطويلة الجميلة . وأخذت المقص، وبدأت شذب الأطراف غير المتساوية من شعرها، وعندما انتهت أصبحت قصة شعرها قصيرة جداً، ولكن على الأقل متساوية . . . ولكن، يا إلهي كم أصبح قصيراً! وارتدت تي شيرت وبنطلون جينز، ثم صعدت إلى السطح .

وجدت آلان يطوي الشراع الرئيسي الذي كان الهواء يتلاعب به، فأسرعت لمساعدته بصمت تلفّ له الحبال وتربطها، وعقد آخر ربطة من الحبال وهو يتنهد واستدار ليواجهها:

ـ أنا سعيد لتخلصك من ذلك اللون القذر. ولكن لماذا قصصتِ شعرك هكذا؟ ألم يكن بإمكانك إخفاءه تحت قبعة؟

ـ لم أفكر بهذا.

ـ لا.. لا يمكن لك التفكير بهذا. تعالي يجب أن أرفع الشراع الصغير.

وهما يرفعان الشراع المثلث الشكل نظر إليها متفرساً وقال:

ـ آنسة ليستر، أظن أن ليس هناك... أيّ سخافات رومانسية في رأسك؟

ـ ماذا تعني؟

وأجاب ببرود:

ـ أعني... أرجو أن لا تكوني تسللتِ إلى هذا اليخت بسبب انجذاب عاطفي سخيف لي؟

ـ بالطبع لا.

وشبك المشبك الفولاذي للحبل في مكانه وقال:

ـ أنا سعيد لسماع هذا... فهذا كان سيعقّد الأمور دون فائدة.

وقالت له وقد احمرّ وجهها:

ـ أنا متأكدة من أن الأمور كانت ستتعقد، هل تواجه كثير من هذه المشاكل سيد سان كلير؟

ـ هذا ممكن، ولكنني لست مستعداً لأية علاقة عاطفية آنسة ليستر، هل هذا مفهوم؟

ـ تماماً.

وأحسّت بأنفاسها تختنق من عجرفته.

ـ جيّد.. الساعة تقارب الواحدة والنصف يا طوني هيستون. حان وقت

الغداء، ألا تظن هذا؟

....

وغاصت الشمس ببطء عند الغروب، تملأ السماء بالشعاع. وتناولا طعامهما تحت النور القرمزي، والعالم من حولهما ساكنٍ تماماً، ما عدا أصوات النورس التي تلحق بهما، وهمسات البحر السرية.

وبدأت النجوم تظهر واحدة واحدة، رؤوس دبابيس من الماس تضيء في كبد السماء المخملي الأسود والقمر كان مكتملاً تقريباً. ليس كالقمر الإنكليزي البارد، بل كتلة مشتعلة من أفضل أنواع الذهب يلمع بصفاء بين الأنوار الأخف، ومال آلان إلى الخلف مستنداً إلى جوار غرفة القيادة، ينظر إلى القمر بعينين هادئتين.

ـ يقولون إن القمر كالعذراء. من السهل قول هذا في أوروبا، ولكن هنا، قرب هذه الشواطىء الإفريقية لا يبدو كالعذراء، أليس كذلك؟ أم عليّ أن أقول هي؟ إنها امرأة غنية جميلة، مستعدة للحب.

وجلست نورما تستمع إليه بصمت، لا تعرف ماذا تقول، ونظر إليها، وشاهدت اللمحة الساخرة في وجهه وهو يتابع:

ـ أو.. هكذا يريدنا الشعراء أن نصدق. على كلٍ، سأشعل الأنوار على السطح.

ونهض بخفة، وذهب ليشغل الأنوار الخضراء والحمراء التي ستضيء «ميليسا» طوال ساعات الظلام. ونزلت نورما لتغسل الأطباق. ثم تفحصت البوصلة، لتتأكد من المسار الذي وضع المركب فيه. وعندما عاد، فتح الخريطة على الطاولة، وأشار بأصبعه، ثم قال:

ـ سوف نصل إلى سلسلة صخور «مارغريتا» قريباً، وسوف أسير باليخت قرب الشاطىء، فأنا أفضل هذه الجهة من سلسلة الصخور بدلاً من جهة البحر.

وأدار المقود ليتجه باليخت نحو الشاطىء، وبدت شواطىء أفريقيا بالتدريج وهي تقترب تحت ضوء القمر. ووقفت نورما قرب آلان في غرفة

القيادة، قريبة منه لدرجة إحساسها بحرارة جسده. الليلة كانت مخملية، زرقاء قاتمة، ليلة إفريقية، وهما يقتربان من الشاطىء، بدأت رائحة الأرض الإفريقية تأتي إليهم مع النسيم، رائحة نار المخيمات والنباتات العطرة.. رائحة كانت نورما تعرف بأنها لن تنساها أبداً.

ـ ما هي هذه البلد؟

ـ الصومال. ستتمكن من مشاهدة الشاطىء قريباً.

وفي هدوء الليل، وصلت إلى أسماعهما أصوات هدير الموج على الشاطىء. وفي وقت قصير كانا على مسافة استطاعا منها رؤية صفوف أشجار النخيل التي تحد الشاطىء، وهي تبدو كالأشباح الفضية تحت ضوء القمر. وعندما أصبح اليخت على مسافة قريبة من الشاطىء أدار آلان اليخت إلى الأمام ووضعه في مسار شمالي بمحاذاة الشاطىء الإفريقي...

وتقدم آلان ليقف قربها للحظة ثم قال:

ـ علينا أن نتناوب السهر، سوف ندبر هذا في الغد. ليس هذا في الواقع ضرورياً، ولكنني أحب أن أكون آمناً.

وتركها بعد قليل ليصعد إلى غرفة القيادة، ووقفت لوحدها تتأمل جمال هذه الليلة، والخط الساحلي أمامها. صوت بعيد قليلاً جذب انتباهها، سعلة خفيفة أتت مع الريح، في البداية ظنت أنه آلان، ولكنها سمعتها ثانية. زمجرة خشنة قادمة من الشاطىء، سببت لها القشعريرة في مؤخرة رقبتها فصاحت:

ـ آلان، تعال واسمع هذا.

وما إن خرج إلى السطح، حتى عاد الصوت ثانية، زمجرة خفيفة من على الساحل. ورفع آلان رأسه وعيناه ثابتتان، فهمست له:

ـ ما هذا؟

وانضم إلى الزمجرة صوت آخر، وضحك آلان فجأة، وتوجه نحو غرفة القيادة وهو يقول:

ـ لنذهب ونرى ما هو.. يبدو أن رحلتك البرية لم تنته بعد، هذا إذا كنتِ محظوظة.

وحدّقت إلى البر، واليخت يقترب بهدوء، واقتربت الأصوات أكثر. فقالت بعصبية:

ـ هل الأمر آمن؟

ـ أجل... ابقِ عينيك على الشاطىء.

ـ وعن ماذا أبحث؟

ـ عن الأسود.

وحدّقت جيداً بالشاطىء، كانا على مقربة منه حتى أنها استطاعت رؤية أشجار النخيل تتحرك، والقمر يضيء على الشاطىء. وسمعا الصوت ثانية واقشعرت بشرة نورما، كان هناك شيء مقلق فعلاً حول هذه الأصوات. وشكراً لله أنهما على متن اليخت، وليس على الشاطىء! وضحك آلان وكأنما قرأ أفكارهما، وقال:

ـ المفترض أن تكون هذه الأصوات مخيفة، الأسود تستخدم هذا الصوت عندما تكون تصطاد لتخيف الطريدة وتتجه في الاتجاه الذي تريده. اصمتي الآن وابقي عينيك مفتوحتان.

ثم رأتهما.. وتجمد الدم في عروقها، بنصف رعب ونصب سرور. أسدان كبيران، يسيران ببطء بين أشجار النخيل نحو الشاطىء، وبصمت أنزل آلان الشراع، ورمى المرساة. وسُمع لسقوطها في الماء صوت خفيف. وراقبت نورما الأسدين وهما يسيران فوق الرمال. على بعد أقل من مئتين يارد عنها. تحت ضوء القمر، جلدهما كان بلون الفضة المذهب. واعتقدت بأنها رأت الضوء اللوزي ينبعث من عينيها. وخرجت من بين الأشجار ثلاث لبؤات لتنضم إلى الأسدين فوق الرمال.. ووقف آلان بقربها يراقبان بصمت...

المخلوقات الضخمة أخذت تتقلب فوق الرمال، والذكور تنفض لبداتها الكبيرة.. ومثل القطط المنزلية أخذت تلعب، تعضّ بعضها

وتضرب بمخالبها، التي تستطيع كسر العظام، بلطف. ورقص قلب نورما لجمال المنظر، إنه رائع، الرؤية الأمثل لشاعر متوحش. والضوء السحري أعطى المنظر لمسة غير حقيقية وكأنها الحلم.

ثم... وبصمت كما ظهرت، عادت القطط الكبيرة إلى ما بين الأشجار، تنادي بعضها من وقت لوقت بأصواتها المتحشرجة، وما إن اختفت الأسود في الظلام، حتى أحسّت نورما أن يدها تؤلمها، فنظرت إليها لتجدها ممسكة بيد آلان. والتقت عيونهما في الظلام، عيناها واسعتان ناعمتان، وعيناه سوداوان لا يمكن سبر غورهما. ثم.. ترك يدها. واستدار ليرفع المرساة.

وتقدمت إلى جانبه تساعده في رفع الشراع ثانية، واصطدم كتفيه العريضين بها صدفة عدة مرات، وكأنها جزء من الأدوات التي على السطح. وكأنما ذلك المشهد الغريب لم يحدث أبداً، واستدارت لتعيد النظر إلى الشاطىء. وكان الشاطىء الفضي ساكناً، وكأنه مسرح مهجور.

ـ لقد انتهت المسرحية.. هيا بنا نسير في طريقنا.

وملأ الريح شراع «ميليسا» الطويل الشبيه بجناح النورس، وشق اليخت الرمادي طريقه في البحر...

●●●

٤ ـ لا تعني شيئاً له!

ما إن حل منتصف النهار التالي، حتى كانا يستديران حول القرن الإفريقي، ويتجاوزان جزيرة «مبدا لكوري» المغطاة بأشجار النخيل ليدخلا خليج عدن في الممر الذي سيوصلهم إلى البحر الأحمر. الحرارة أصبحت شديدة، وكلاهما يجد صعوبة في التنفس. آلان كان يرتدي شورتاً قصيراً، وجسده الضخم يتصبب بالعرق، وخلعت نورما ثيابها لترتدي البيكني، وفردا كل قطعة قماش من الأشرعة كي يؤمنا التقاط الريح الخفيفة. وما إن انتهيا من ربط الحبال حتى جلست على السطح وهي تتنهد. ومسح آلان العرق عن جبينه، فنظرت إليه وابتسمت قائلة:

ـ أتريدني أن أغسلك.؟

ـ أرجوك..

وأخرجت خرطوم مكافحة الحريق ومدته نحو الماء ثم أدارت المضخة، وفي خلال لحظات تدفق ماء البحر المالح من الخرطوم الذي تحمله. ووجهت الماء على ظهره فشهق لبرودته، وكانت هذه طريقة قاسية، ولكن فعالة للابتراد في هذا الطقس الذي يشبه بحرارته حرارة جهنم، في هذا المكان من الخليج، حتى البحر الأحمر سيكون جوه ألطف بكثير من هنا، حيث ستهبّ الرياح الباردة من اليابسة نحو البحر، وأصبح آلان نظيفاً ومبللاً.. وأخذ منها الخرطوم ليرد إليها جميلها.

www.elromancia.com

وتمتعت نورما برذاذ الماء المنهمر عليها، متذكرة طفولتها عندما كان والدها يفعل معها مثل هذا في حديقة منزلهما الصغير. وبعد أن أنعشتهما المياه عادا ليجلسا في فيء غرفة القيادة. وقال لها آلان:

ـ لست أدري كيف كنت أبلهاً لأنخدع بتنكّرك.

وأحمرّ وجهها، فأخذت المنشفة تشغل نفسها بتجفيف شعرها، ثم تطلعت في المرآة المثبتة فوق البوصلة وقالت:

ـ لم يكن لدي فكرة بأن أذناي ملتصقتان إلى الوراء هكذا.

ـ كان يجب أن تفكري بهذا قبل أن تقومي بعملك الأحمق، لم يكن عندك شيء مميز سوى شعرك، ولقد ذهب الآن.

وارتدت بصمت قميصاً قطنياً، ونزلت إلى المطبخ لتحضر طعاماً خفيفاً للغداء.

وهما يبحران مبتعدين عن باب المندب، التقيا بالعديد من السفن فوق المياه البراقة، وتجاوزا الكثير من المراكب الشراعية العربية منذ الفجر. وبينما هما يتناولان وجبتهما بصمت، وجدا نفسيهما وسط مجموعة صغيرة من المراكب العربية يقودها رجال سمر في ثياب تشبه البيجاما.

وأنهى آلان طعامه، وأسرع إلى غرفة القيادة ليراقب سير اليخت، وبقيت نورما وحيدة يثقل مرور الوقت عليها. وقررت أن تجد ما يلهيها، فجلست تلمّع معدات الملاحة، واستغرقت في عملها ما يقارب الساعة إلى أن نزل آلان، ووقف عند الباب. وقال:

ـ فكرة ما خطرت في ذهني... خطيبك هذا.. رالف أليس كذلك؟

ـ نعم؟

ـ هل قلتِ له أين أنت؟

ـ لا.. في الواقع لم أفعل.

وسألها بحدة وعيناه تتفحصانها:

ـ وكيف سيعرف مكانك إذن؟

ـ سوف يشرح له بيتر أشتون الأمر.. لقد تركت له رسالة...

ـ وهل تركتِ لبيتر أشتون أن يشرح لخطيبك؟ وماذا ستظنين بأنه سيقول لصديقك العزيز؟

ـ سيقول بأنك احتجت إلى بحار، واخترت أن أبحر معك..

ـ ماذا يعمل رالف لكسب معيشته؟

ـ إنه سمسار في البورصة... لماذا؟

ـ إنه يعمل في الصيرفة إذاً؟

ـ في سوق القطع في لندن، أجل.. ولكن لماذا؟

ـ لأنني أستطيع الاتصال به بالراديو. وسوف أتحدث مع رالف.. ما اسمه الأخر؟

ـ كلارك.. ولكن لماذا:..

ـ ماذا ستظنين أن صديقه بيتر سيقول له؟ بعد خلافك معه وبعد الجدال الذي حصل معه في مومباسا، ألا تظنين أن هذه فرصة مؤاتية للانتقام مني؟

ـ وماذا تظن بأنه سيقول له؟

ـ سيقول: لقد قابلت ذلك الرجل على اليخت.. ألا تعلم، وما إن شاهدته حتى قفزت إلى أحضانه...

فصرخت نورما:

ـ لا..!

ـ وسيتابع، لقد هربت معه على يخته.. ولكنني سأتصل برالف الآن فوراً.. وسوف تشرحين له كل شيء... صحيح؟

ـ آلان.. لا. لا أريد...

ـ ما تريدينه لا يهمني. لن أجعل نفسي مضطراً للتنازل عن شيء بسبب مزحة قمتِ بها..

ـ ولكن دعني أشرح لك.. أنا لم...

ـ سأتصل به بالراديو.

ـ آلان.. أرجوك لا تفعل...

والتفت إليها بغضب:

ـ ألا تعتقدين أن من الإنصاف إبلاغ الرجل المسكين؟ سوف يتخيل كل أنواع الأفكار.

وتبعته بيأس إلى غرفة القيادة، وكان جهاز الإرسال الضخم على الطاولة، وجلس آلان أمام الآلة، وبدأ ينادي لندن. وحاولت نورما أن تكلمه لآخر مرة.

ـ آلان.. لا يجب عليك أن تكلم رالف.. أستطيع أن أشرح...

ـ شرحك له سيكون أفضل... هذا اليخت ميليسا ينادي لندن. ينادي لندن...

وخلال بضع دقائق استطاع الاتصال بمركز إرسال لندن. وطلب منهم أن يوصلوه بالبورصة. ومثل هذه الاتصالات من السفن في أقطار العالم عادية بالنسبة لسنترال البورصة، فالزبائن عادة يتصلون بهم من جميع أقطار المعمورة.

ووقفت نورما بصمت إلى جانبه، وهو ينتظر عاملة السنترال أن تصله برالف كلارك، وكان قلبها يخفق بألم.. لماذا لم تقل لآلان الحقيقة؟

وفجأة سمعت صوت رالف من جهاز الراديو..

ـ آلو... ميليسا، رالف كلارك هنا. من المتكلم أرجوك؟

ـ أنا آلان سان كلير.. اسمعني يا كلارك.. خطيبتك معي. نورما ليستر.

ـ آه.. إذاً هذا أنت.. ماذا تريد؟

ـ أريد شرح الوضع لك.

ـ ليس عليك أن تشرح شيئاً يا رجل. أنا متفهم تماماً، لقد أعجبتك خطيبتي.. وبكل بساطة حملتها على متن يختك، وأقلعت تحت أشعة الشمس. هل هذا صحيح؟

ـ لا.. ليس صحيحاً. لقد صعدت نورما إلى المركب بالخديعة...

ـ وهل فعلت هذا؟ أنت رجل محظوظ سيد سان كلير.. لم أستطع

أبداً دفعها لمثل هذه الخديعة. ربما كنت أنت أقوى مني؟

ـ اسمع يا كلارك... هل اتصل بك بيتر أشتون؟

ـ في الواقع لقد فعل. لقد قال لي بأنك صدمت مركبه. وأحدثت له أضراراً فادحة، وكنت، كما قال، تحت تأثير السكر.

فصاحت نورما بحرارة غير قادرة على تمالك نفسها:

ـ هذا كذب!

فقال رالف بهدوء:

ـ هل هذه خطيبتي العزيزة السابقة؟ أنا سعيد لسماع صوتك يا نورما، هل فراش السيد سان كلير مريح لك؟

فصرخ آلان غاضباً:

ـ اسمع يا كلارك، أنت تفترض افتراضات خاطئة، أنا لم ألمس فتاتك. وإذا كان ذلك الخنزير أشتون قد لمّح لك بأن هناك شيء بيننا، إذن فهو كاذب أكبر مما كنت أتصور!

ـ لقد أعطاني بيتر بعض التفاصيل.. ولكنني لم أكن بحاجة لمعلوماته لأتخيل الصورة الكاملة.. أنا رجل مشغول دائماً سيد سان كلير... ألا يمكن اختصار هذه المحادثة المضجرة؟

ـ وماذا تعني بهذا القول؟

ـ ألا تعلم؟ أخشى أن تكون فتاتك الجديدة قد أفسدت عليك كل شيء.

ـ نورما؟ وماذا...

ـ أوه أرجوك لا تلعب لعبة البراءة، لقد اتصلت لتخبرني كل شيء عن علاقتكما ليلة سفركما.

ـ ماذا؟

ـ يبدو أن أقوالكما غير متفقة يا رجل. اسمع... سأقفل الخط الآن. وأرجوك، لا تعاود الاتصال بي.. لا أنت ولا هي.

وصاح آلان:

ـ كلارك. . .

ولكنه كان قد أقفل الخط، ورمى المايكرفون على الطاولة، واستدار في كرسيه ليواجهها.

ـ ما كل هذا بحق الجحيم؟ هل اتصلتِ برالف وقلتِ له بأننا. . . نقيم علاقة معاً.

ـ آلان. . أرجوك. . اسمح لي أن أشرح الأمر.

ـ الأفضل أن تشرحي، لقد اكتفيت منك ومن مشاريعك المجنونة، لماذا قلتِ له إنني عشيقك؟

ـ لقد زل لساني فقط.

ـ كيف يمكن لكلام كهذا أن ينزلق من لسانك؟

ـ حسناً. . لقد كنت مستاءة من كل شيء حصل في مومباسا، لذا اتصلت برالف لأقول له عما حدث، ونحن لم نكن متوافقان مؤخراً، أرجوك أن تصدقني يا آلان. ولهذا السبب أتيت إلى مومباسا لوحدي، كي أعطي رالف فرصة للتفكير. . قال إنه بحاجة إليها.

ـ وفّري عليّ سماع تفاصيل حياتك الخاصة، لأجل الله! وقولي لي ما حدث عندما اتصلتِ به من مومباسا؟

ـ إنه. . لقد. . حسناً. . لقد اختار تلك الأمسية بالذات ليبلغني أنه على علاقة غرامية مع إحدى صديقاته. . . جولي. . لقد التقيت بها.

ـ ومن هي جولي؟

ـ الفتاة التي كانت على المركب، التي ترتدي الأقراط الماسية.

ـ آه. . تلك الفتاة التي تنظر إلى كل الرجال وكأنهم حلوى فرنسية؟

وأجابت نورما بمرارة:

ـ أجل. . هكذا تبدو.

ـ لقد بدأت أفهم لماذا زحفتِ إلى يختي زحفاً، لقد أردتِ أن تنتقمي منهم جميعاً. أليس كذلك؟

ـ اعتقدت بأنك ستظن هذا، ولكنه غير صحيح، على كلٍ، قال لي

رالف إنه وجولي يتقابلان منذ أشهر. . .

ـ لست مهتماً في الواقع. . يا إلهي. . أنت فعلاً ساذجة، ألست هكذا؟

ـ إن شئت أن تقول هذا، ولكن صدّق أو لا تصدق لقد تألمت كثيراً، واعتقد رالف أنني اكتشفت أمر جولي. . . وأنني. . .

ـ وأنك رميتِ نفسك في أحضاني للانتقام منه. . فهمت، وبالطبع أكدتِ له ذلك؟

ـ كنت مستاءة جداً يا آلان، ولم أقصد أن أستغلك هكذا، لقد حدث ذلك عفواً، بسبب الألم الذي كان في داخلي. . .

ـ أوه. . أرجوك. . لا تبدأي بلعب دور مأساوي، لا أستطيع التحمل!

واستدار عنها بسرعة وركّز نظره على مغيب الشمس الذي كان يحوّل خليج عدن إلى قطعة من النحاس، وقال لها بصوت هادىء ومليء بالشر:

ـ لقد استخدمتيني كالمغفل، منذ البداية، لقد كنت وسيلة خلاص مناسبة لك. أليس كذلك؟ لتبتعدي عن عطلة لم تكوني تتمتعين بها. . .

ـ لا. . يا آلان. . .

ـ ثم طريقة للخلاص من علاقة، بدأت تضجرك. . .

ـ هذا غير صحيح! لقد كنت أحب رالف. .

وتوقفت عن الكلام، وعادت الجملة إلى ذهنها: كنت أحب! . . .

والتقت عيناه بعينيها للحظة، وابتسم، التواء بسيط مرير لفمه أحرقها كأنه الأسيد، وقال بنعومة:

ـ هيا. . تابعي، أنا متمتع بالعرض تماماً. .

وأحسّت بشيء في حنجرتها يخنقها، فحاولت إبعاده، وقالت:

ـ أنا. . لم أقصد بأن يكون الأمر هكذا يا آلان. . .

ـ تعنين، أنك لم تقصدي بأن أعرف كل الأكاذيب التي كنت تقولينها عني؟

ـ ليس هذا ما عنيته، لم أكن أقصد بأن أستغلك، كنت أقصد أن

أساعدك، أن أعوّض عليك بطريقة ما. ولم أقصد أن أحشرك في مشاكلي مع رالف.

ـ ألم تقصدي هذا؟

ونظر إليها وهو يبتسم ابتسامة تنم عن عدم تصديقه لها. فقالت بمرارة:

ـ لا أعتقد أن ما أقوله يهمك على كل الأحوال، فلن تصدقني، أليس كذلك؟

وردّ عليها بهدوء:

ـ لا.. لن أصدقك بعد الآن يا آنسة ليستر، فمن الآن وصاعداً عندما تقولين لا.. سأفهم بأنك تعنين نعم...

واستدار لينظر من النافذة المستديرة أمامه، ثم قال:

ـ هذه «رأس الخنزيرة» أمامنا.. وسوف أستخدم كلمات خطيبك السابق: ألا يمكن اختصار هذه المحادثة المضجرة؟ سوف أتوقف في «جيبوتي» الليلة لأعبىء بعض الوقود. إنه أرخص قليلاً في هذا الجزء من العالم.. لنعد إلى العمل.

ـ آلان...

ـ نعم؟

ـ لا أريد أن أكون عدوتك...

ـ لست عدوتي.. بكل بساطة أنت لا تعنين لي شيئاً أبداً.

ومررت يدها في شعرها باضطراب. آلان لم يكن رجلاً عادياً، ولا تستطيع أية امرأة أن لا تقع في حبه ولو لفترة قصيرة. ومع ذلك فقد كانت متأكدة أن هذا لم يحدث لها، إنها ببساطة معجبة به فقط.. أم هكذا هو الأمر؟ لا يمكن لها أن تكون وقعت في الحب ثانية! ليس بهذه السرعة بعد انفصال مؤلم مع الخطيب. وليس مع رجل لا تكاد تعرفه... لا.. إنها ليست مغرمة بآلان سان كلير.. ولن تغرم به.

* * *

وتوقف صوت ضخ البترول من مضخة مرفأ جيبوتي، وسمعت صوت

السلاسل وهي تسحب الخرطوم من على اليخت. ووقفت عندما دخل آلان عليها غرفة القيادة، وقال باختصار:

ـ لنخرج من هذا الميناء القذر.

وللمرة الأولى، بدأ محركا «ميليسا» الضخمين بالهدير. وقاد آلان اليخت بعناية بين المراكب والسفن التي تطفو فوق مياه الميناء المليئة بالزيت. وفي وقت قصير كان اليخت يجتاز مدخل الميناء الضيق، وتلاشت أصوات وروائح ميناء جيبوتي وراءهم. ورفع الشراع الرئيسي الطويل الأبيض والأسود، ودفعت به ريح حارة باتجاه البحر الأحمر، وخلال ساعة كانا قد قطعا مدخل باب المندب ودخلا في عرض البحر الأحمر الهادىء العميق، وأوقف آلان المحركات، وارتفعت الأشرعة كاملة لتبحر بـ «ميليسا» بهدوء..

مرة أخرى توقف النشاط على اليخت، فقد كانا وحيدين في البحر المظلم العميق، وما إن شغّل آلان المقود الأوتوماتيكي حتى لم يعد أمامهما ما يفعلان. وكانت معدات الملاحة لا زالت على الطاولة حيث وضعتها نورما بعد أن نظفتها، وأخذت تجمعها لتعيدها إلى علبها. وانزلقت من بين أصابعها آلة قياس النجوم، ولرعبها صدمت الأرض مصدرة صوت تحطم. ورفعتها، بقلق فوجدت أن العدسة قد تحطمت، وغاص قلبها، الآلة كانت جميلة، ويبدو أنها أثرية، وكانت تحدق بها عندما دخل آلان.

ـ ما هذا الصوت؟

وشاهد المرقاب في يدها. وناولته إياه وهي تشعر بالذنب، فتفحص الآلة. وقال بهدوء:

ـ لقد أعطاني والدي هذه الآلة، كانت لجده.

ـ أنا آسفة يا آلان...

ـ ألا تستطيعين فعل شيء بشكل صحيح؟

وتوترت أعصابها، ونظرت إليه بغضب.

ـ كان هذا مجرد حادثة.. ألا تستطيع تصديق ذلك؟ يقع للناس دائماً حوادث يا آلان. لم أقصد أن أكسرها...

ـ أنت لا تقصدين شيئاً. أليس كذلك؟ كل شيء يحدث معك يحدث صدفة. ولا يكون أبداً بسبب غبائك اللعين. أليس كذلك؟

وصاحت به بغضب:

ـ ومن تظن نفسك، نوع من الآلهة؟ لم تفعل شيئاً سوى الصراخ ومهاجمتي منذ أن التقينا، وكأنني مسؤولة عن حظك السيء!

واستدارت مبتعدة، وهي ترتجف من الغضب، متابعة كلامها:

ـ لقد قمت ما بوسعي لمساعدتك، مع أنني لا أعرف لماذا. لم أعرف لماذا لم أتركك تعيدني إلى مومباسا...

ـ ولست أدري لماذا لم أفعل. أنا لست بحاجة لك يا نورما، لقد أقحمت نفسك عليّ دون دعوة...

ـ إذاً أنزلني إلى البر في بور سعيد، وسوف أعود لوحدي إلى لندن.

ـ بور سعيد! وكيف ستجدين طريقك للخروج من بور سعيد؟

ـ لست أدري.. ولكن..

ـ ولكنك لا تملكين مالاً.. أليس كذلك؟

فترددت وقد احمرّ وجهها. فقال لها بوحشية:

ـ أنت مجرد حمولة زائدة في اليخت يا نورما.

فالتفتت إليه، وعيناها تلتمعان بالدموع، وتوجهت نحو باب غرفة القيادة. وأمسكت يداه بخصرها بقوة، وأدارها بقساوة لتواجهه. فشهقت وقد أجفلت، محدقة بالوجه الملتحي. وصاحت:

ـ اتركني، اللعنة عليك!

ـ ولماذا أتركك؟ أليست هذه هي الطريقة التي يعامل بها الرجال عشيقاتهم؟

ـ وماذا تعني؟

ـ لقد أخبرني الجميع بأنك عشيقتي يا نورما، لذا يجب أن أستفيد من

هذا!

ـ لست أدري عن ماذا تتحدث؟

وحاولت أن تتخلص منه، فقال بنعومة:

ـ أيتها البريئة المسكينة، دعيني أريك ماذا أقصد.

وضمها إليها بقوة وقد لفّ ذراعيه من حولها، وتجمدت من الصدمة، ثم ضغطت بيديها على صدره لتجذب نفسها عنه.

ـ اتركني!

ـ لقد بدأت أعتقد بأنك ستكونين ذات فائدة لي، على كل الأحوال.

وكادت أن تقع، عندما أفلتها أخيراً، فأسرع ليسندها، ثم أنزلها ببطء لتجلس على المقعد.. والتقت نظراتهما فقال بصوت أجش:

ـ هكذا.. لقد أصبحتِ تعرفين الآن.

ـ ما.. ماذا تعني؟

ـ تعرفين الآن لماذا رويت عني كل هذه الأكاذيب، لقد كنتِ راغبة في أن تكوني بين ذراعيّ، أليس كذلك؟

ـ لا!

ـ لا؟ هل تريدين إعادة التجربة هنا أم ندخل إلى غرفتي؟

ـ لا شيء.. لا أرغب بك!

ـ ولكنك منذ لحظات كنت تتصرفين عكس هذا يا نورما ليستر!

ـ لا يعني عدم مقاومتي لك عندما عانقتني أن لك الحق بأن تجبرني على أكثر من ذلك.

ـ لن أجبرك على شيء.

صوته كان عميقاً وهادئاً ولطيفاً، ومد يده ليمسح شعرها القصير، وفي عينيه ثقة بالنفس.

ـ هذه القصة المجنونة لشعرك جذابة.

وتخللت أصابعه شعرها الناعم، بحركات ناعمة مثيرة، وكالقطة، بدأت نورما تحرك رقبتها ورأسها بسعادة. وضحك ضحكة عميقة ساخرة.

www.elromancia.com

ثم شد على شعرها حتى أنها صرخت من الألم. فنظر إليها بعينيه الجذابتين وسألها:

ـ وماذا الآن؟ هل هناك ألاعيب جديدة؟

ـ لا أريد أن أتابع معك هذا يا آلان!

ـ بل أنت تريدين، انظري إلى يديك يا عزيزتي، أنت ترتجفين كورقة شجر!

ـ أنا لست مستعدة لهذا.. ليس بهذه الطريقة على كل الأحوال.

ـ وكيف إذن؟ هل يجب أن أغازلك وأغريك؟ أخشى أن لا أجد وروداً في البحر الأحمر لأقدمها لك!

ـ أنا لست مستعدة أبداً... هل هذه فكرتك لمعاقبتي يا آلان؟ هل تريد إذلالي، لأنك لم تحبني، وكنت مصدر إزعاج لك..؟

ـ كلام سخيف.. هذا الأمر ليس له علاقة سوى بالرغبة. أنا رجل وأنت امرأة، وكلانا نرغب ببعضنا، فما دخل أي شيء في هذا؟

ـ الكثير الكثير له دخل. أول شيء، أنا لا أرغب في... أنا لست من هذا النوع من الفتيات.

ـ وما نوعيتك إذاً؟ النوع الذي يقول لخطيبه إنها بين أحضان رجل آخر؟ ما هو هذا النوع يا نورما؟

ـ ربما فتاة مشوشة الفكر. ولكن ليس النوع الذي يقفز إلى أحضان أي غريب.

ـ أوه.. هيا.. وفّري عليّ تظاهرك بالطهارة!

فصاحت به بغضب...

ـ لا تقل هذا!

وتقدم نحوها، فتراجعت إلى باب غرفة القيادة. ولكن، في الظلام الحاد فوق السطح، تبعها ولف ذراعيه حول خصرها، وجذبها إليه، وتصاعد الدم إلى وجهها، وشعرت بقوته، وأحسّت أنه قادر على أن يفعل ما يشاء بها. فتوسلت إليه بيأس:

ـ آلان.. أرجوك أتركني!

شيء من الإلحاح في صوتها استطاع أن يصل إلى نفسه، فتركها بصمت، وتراجعت إلى الخلف بضعف، وخيبة الأمل تسري في جسدها، إذ أدركت أنه فجأة قد أصبح بارداً!

وقال وصوته قاسٍ كالفولاذ:

ـ نورما... دعيني أعطيك إنذاراً.. لا تتلاعبي معي. أبداً! هل فهمتِ؟

وردّت «نعم»! فاستدار عنها بغضب، وأحسّت بردة فعل مرتجفة تنتشر في جسدها ويألم، وهي تدرك بأن آلان كان يمكن له أن يأخذ منها ما يشاء في لحظات.

إذاً.. لقد أنقذت شرفها الثمين... وهذا أمر جيد.. أليس كذلك؟...

●●●

٥ ـ لست جاريتك!

ونهضت نورما عند فجر اليوم التالي، ونفضت الغطاء عنها، ثم سارت نحو النافذة لتنظر إلى الخارج. كان البحر، الممتد أمامها كالفضة، هادىء وساكن وكأنه بركة. وكانت «ميليسا» تبحر في البحر الأحمر مثل طائر البطريق الرمادي، يجرفها الريح. وكل شيء من حولها صامت، وارتدت نورما البيكيني، وغسلت وجهها، ونظرت إلى شعرها في المرآة، وتذكرت أصابع آلان وهي تمر من خلاله، وصدمتها هذه الذكرى. ماذا يحدث لها؟ وفكرت بردة فعلها ليلة أمس بين ذراعيه، وطغت عليها موجة من الخجل.. يا للسماوات! لقد كانت على وشك فقدان السيطرة على نفسها، غير قادرة على التوقف عن الاستجابة له.

وأسرعت بالخروج إلى السطح، كي تتمتع بآخر نسمات باردة للفجر. كانت الشمس قد بدأت تعلو ككرة ملتهبة على طول خط المشرق الرفيع، ذلك الخط الذي عرفت أنه العربية السعودية. وتنهدت، ومالت على الحاجز فوق السطح، وتأملت في المياه المتسارعة المزبدة أمام مقدمة اليخت.. الأمس كان يوماً شاقاً، صوت رالف عبر الراديو استطاع أن يصدمها أكثر مما تصورت، ما بينهما من المؤكد أنه وصل إلى نهايته.

وأخذت تفرك الحاجز النحاسي أمامها محاولة أن تحدد بعض أسباب الألم في قلبها. ومن حقها أن ترتبك لتطور الأحداث. ولكنها مع ذلك لم

تكن مرتبكة، فهل أصبحت غير هيابة؟

وماذا عن آلان سان كلير؟ هل أصبح قادراً على تحطيم دفاعاتها، وأن يمتلك قلبها؟ وكيف تكون هناك عاطفة في قلبه طالما كل ما يريده منها هو...؟ هل يمكن أن يكون هذا هو الحب؟ وبعثت الشمس الدفء فيها، واستدارت لتنظر إلى الطريق التي اجتازها اليخت خلفها. البحر كان خالياً وساكناً. صفحة سائلة من الذهب تحت أشعة الشمس، ونظرت إلى جسدها الذي لوحته أشعة الشمس خلال الأيام الماضية. وتساءلت كيف ينظر إليها آلان يا ترى؟ الكلمات التي قفزت إلى ذهنها كانت بشعة. كل ما يشعر به هو الرغبة فقط. وهي في متناول يده، وهذا كل شيء.

قبل أي شيء.. يجب عليها أن لا تفكر عاطفياً بآلان... فهذا قد يكون خطراً. فهو سيمزق قلبها إلى قطع صغيرة، إذا سمحت له بأن يمتلكه، إنه ليس من النوع الذي يحب، ولا حتى لنورما ليستر الصغيرة البريئة. ومع ذلك فكم كان سهلاً عليه أن يذيبها بين ذراعيه، كم كان سهلاً جداً! ونظرت إلى السماء الزرقاء الصافية من فوقها، وهي تفكر بآلان سان كلير!

ـ هل أنت من عابدي الشمس؟

والتفتت لتراه يخرج من باب غرفة القيادة، وكان يضع المنشفة على رأسه يجفف وجهه، ثم رمى بالمنشفة، وشهقت، لقد حلق لحيته. وقال لها:

ـ سيكون الطقس حاراً جداً مع اللحية في الأيام القادمة.

وحدقت به، كان قد ترك سالفيه طويلين ولكن وجهه كان نظيفاً. وجه جميل بشكل مذهب! وفمه يبتسم بسخرية أمام دهشتها. وقالت متنهدة:

ـ أنت.. أنت جميل!

ولم تخرج منها الكلمات، وأدار وجهه وهو يبتسم ثم قال:

ـ أرجوك، لا تقفي هكذا وفمك مفتوح، أنا أكيد بأنني لست مغرياً لهذه الدرجة.

وأبعدت عينيها عنه وحاولت أن تقلد الهدوء الذي في صوته:

ـ لا.. أنت لست مغرياً أبداً. هل تحب تناول الإفطار؟

ورد عليها دون أن يتأثر بسخريتها:

ـ نعم.. ولكن أولاً لنرفع مزيداً من الأشرعة. أريد أن أستفيد من أي ريح قد تهب.

ورفعا الشراع الإضافي، واستجابتِ «ميليسا» بقوة غريبة فوق المياه. ولم تستطع نورما أن ترفع نظرها عنه، إنه ليس من النوع المختال، متعجرف أجل، فخور بقوته ولياقة جسده، فخور مثل جواد سباق، ولكن ليس مختالاً بنفسه. ليس مختالاً بالطريقة التي كان بها رالف بوجهه الجميل كالفتيات. وكم يبدو رالف فارغاً، مضللاً مقارنة بهذا الرجل!

وتناولا الإفطار بصمت، ولم يشر أي منهما لما حدث الليلة السابقة. وسألته نورما:

ـ كم سيستغرقنا من وقت للدخول إلى المتوسط؟

فهز كتفيه وقال:

ـ يتوقف هذا على الريح، وأمور أخرى، ولكن حوالي الأربع والعشرين ساعة تقريباً.

ـ في وقت قصير كهذا؟

ـ إذا استمرت الريح هكذا، فإننا نسير في سرعة ممتازة.

ومسح ما تبقى من البيض بقطعة خبز وأكلها، ثم نظر إليها متفرساً:

ـ ليستر.. من أين أنتم أصلاً؟

فابتسمت وردت عليه:

ـ جدي الأكبر كان تاجراً من اليونان اسمه جورجيوس ليستر اروس، ولكن لم يستطع أحد أن يلفظ اسمه كاملاً فتغير تدريجياً إلى ليستر.

وتطلع بشعرها وبشرتها الذهبية، ثم قال:

ـ لا تبدين لي يونانية.

ـ لا، فجدي كان له شعر أسود، ولكن أجدادي الآخرون كان شعرهم

أشقر.

ـ ووالدتك؟

ـ كان شعرها بلون شعري. هكذا كان والدي يقول لي.

ـ ربما أطفالك سيكون لهم شعر أسود وبشرة سمراء.

ـ ربما.. سان كلير اسم غير عادي، من أين أتى أصلاً؟

ـ إنه على اسم القديسة كلير. من مقاطعة تدعى «بروڤينس» في فرنسا.

ـ أعتقد أن عائلتك جاءت إلى إنكلترا مع الغزاة..

ـ لقد أتوا عبر ممر دوڤر ـ كالياس. على الأقل والدي جاء عن هذا الطريق. إنه فرنسي الأصل.

ـ حقاً؟ ووالدتك؟

ـ كانت إنكليزية. التقت بوالدي خلال الحرب، كان من رجال المقاومة، وقاعدته كانت في طولون، وعندما اضطر للهرب من النازيين، جاء إلى لندن. وهناك التقى بوالدتي وأحبها. وبعد انتهاء الحرب، عاد إلى إنكلترا وتزوجها.

ـ لقد قال بيتر إنه من أبرع مصممي المراكب في أوروبا.

وابتسم آلان وقال:

ـ سيسعد والدي لسماعه هذا. كان دائماً متقدماً زمنه بعشرين سنة. وعادة يستغرق تقبل أفكاره هذه المدة. وبعد أن أصبح في الستينات بدأت عبقريته تصبح معروفة.

ـ وأنت تصمم طائرات نفاثة للأثرياء.

ـ أجل.. لسبب ما انجذبت إلى الطيران أكثر من البحر. منذ ثلاث سنوات أسست شركة «طيران كلير» وقد كلفتني ثروة طائلة، ونحن الآن ندفع ما تبقى علينا من ديون. ولكن في السنة القادمة، وإذا اشترى الألمان إحدى طائراتي الهليوكوبتر، المصممة لبوليس السير عندهم، سوف نصبح فعلاً في مقدمة العاملين في هذا المجال. وأنت.. آنسة ليستر، هل أنت أحد الأثرياء؟

وشرحت له عملها في ترميم اللوحات، ولدهشتها، اهتم بالأمر.

ـ لم أكن أعرف أن مثل هذا العمل قد يهمّك.

ـ على العكس.. ما تفعلينه هام جداً، فالماضي ثمين، ومُعرضٌ للتلف. ويجب ترميمه، وإلا سيتلف بكل سهولة، ونخسر جميعاً الاتصال بالأمكنة التي أتينا منها. وهذا يجعل صعباً أن نعرف إلى أين نحن سائرون. على كل، علينا أن نقطع الحديث الآن فسوف نصل إلى أرخبيل «شيبيرا» قريباً. وأمامنا عمل كثير.

ووصلا ما بين الجزر عند العاشرة والنصف، روابي رملية لا تعد ولا تحصى ترتفع من البحر، بعضها مكسو بالعشب الخشن، والأخرى بأشجار النخيل وجوز الهند، وانسلّ اليخت من بينها، وأخذت نورما تنظر إلى الخارج بحذر خوفاً من المياه الضحلة، وبعد نصف ساعة، ظهرت أمامهم جزيرة أكبر من غيرها وكأنها هضبة رملية مكسوة بالعشب تبرز من قلب الماء، ونظرت إليها نورما بذهول، فقد ظهر على متنها آثار قصر. فنادت آلان وسألته فقال:

ـ هذا قصر «مارابي».

ـ هل هو قصر حقيقي؟

ـ لست أدري.. يبدو لي أن طرازه أندلسي.. ربما من بقايا الحروب الصليبية.

عندما اقتربوا منه استطاعت نورما أن ترى بأنه قصر بالفعل. العديد من جدرانه متساقط، ومن الواضح أنه مهجور. فتحات إطلاق النار في أعلى أسواره ذات طراز أندلسي دون ريب، إنه مكان مخيف وغريب. واستدارت إلى آلان الذي أقبل إلى جانبها ليحدق بالقصر:

ـ أنستطيع التوقف يا آلان؟ لنلقي نظرة عليه؟

ـ هذه ليست رحلة استمتاع يا نورما. ولكن لدينا وقت كافٍ، حسناً... تعالي نلقي نظرة.

كان إلى جانب الجزيرة خليج طبيعي، وهناك ألقوا المرساة، في أقرب

مكان ممكن من الشاطىء، وكانت المسافة إلى القصر قصيرة وهما يتسلقان المرتفع نحوه. ولسعادة نورما وجدت العشب هناك مليء بنبات الخشخاش الأرجواني والأحمر. جدران القصر، ترتفع عالية عالية فوقهما وهما يدخلان عبر البوابة الضخمة التي لا بد أنها في الأزمنة القديمة كانت محصنة جداً.

داخل القصر، دون سقف، كان مرجة برية من الخشخاش والعشب الشائك. وكان هادئاً ساكناً كالمقابر، وحدها الريح تنهد برقة عبر الفتحات في الجدار، وبين النباتات المتأرجحة. وسارا بصمت في القاعات الضخمة يستمعان إلى الموسيقى الغامضة التي تعزفها الريح، ووجدا سلماً محطم الدرجات يصعد إلى جانب أحد الجدران، وتسلقاه بحذر نحو القمة، وجلسا معاً عند فتحات الرمي في أعلى السور، ينظران حولهما، واليخت بدا شكلاً جميلاً رمادياً يقبع في الخليج الأزرق تحتهما، انعكاسه على صفحة المياه الساكنة، كأنه جناح النورس. البحر الأحمر بدا مهجوراً وهادئاً من حولهما، يمتد كالبحيرة الواسعة نحو الأفق، حيث شواطىء مصر تلوح كطيف. وجزر الأرخبيل تنتشر وكأنها الجواهر الصفراء على صفحة ماء حريرية.. وتنهدت نورما وقالت:

ـ هذا جميل جداً!

ـ أجل.. لا بد أن هذا المكان بناه المسلمون لمراقبة تحركات الصليبيين.

ـ كم تعتقد عمره؟

ـ سبع أو ثمانمائة سنة.. إنه مكان غريب «مقدس وقديم كأنه موجود تحت القمر، مثل امرأة تبكي على من تحب».

وابتسم لها ابتسامة ساخرة، فقالت:

ـ كنت أحاول أن أتذكر هذا البيت من الشعر هذا الصباح. لمن هو؟

ـ إنه من قصيدة «كورليدج» «كوبولاخان».. هيا بنا لنعد إلى المركب. أمامنا طريق طويل.

وتبعته إلى الأسفل، وهي لا تزال مأخوذة بجمال ووحشة «مارابي». وهما يسيران عبر الخشخاش توقف آلان فجأة والتقط شيئاً. كان طوقاً من معدنٍ ما، مدفون في التراب. وفركه فوق العشب لينظفه، وأخذ يتفحصه، إنه سوار. . سوار من فضة، وتقدمت منه نورما وهي تصيح من الفرح:

ـ آلان. . إنه جميل. . ما هو؟

ـ إنه سوار عبيد، كما أظن، إنه على الأرجح قديم كالقصر. إذا لم يكن أقدم.

وتفحّص تصميمه، وراقبت وجهه وهو يقلّب السوار بين أصابعه. كان ثقيلاً من الفضة الصافية، ومزين بالزخارف العربية. وبسبب صفاء معدنه لم يؤثر عليه الزمن، كما قد يفعل بالفضة الحديثة. وفتح قفله تحت ضغط أصابع آلان، فقالت نورما:

ـ إنه من صنع يدوي، أليس كذلك؟

ـ أجل. . لا بد أن أحد أسياد الحرب صنعه لعبدته المفضلة. . ولا بد أنه كان يحتوي على قفل صغير عليه للتأكد من أن الفتاة لن تخلعه وتبيعه.

ـ كم هو جميل. . أيمكن أن يكون مصنوعاً لجارية عادية؟

ـ أنت أحياناً بريئة جداً يا نورما. هل أنت فعلاً بريئة، أم أنك ممثلة بارعة؟

ـ أتعني أنها كانت. . .

ـ المحظية المفضلة، أجل. ولا بد أن هذا مكافأة لها. . . لبعض الخدمات الخاصة.

وأمسك آلان بيدها، وبابتسامة غير مريحة، أقفل السوار على يدها فحدقت به غير مصدقة. فقال:

ـ إنه لك.

فشهقت نورما، وركضت وراءه بعد أن عاد إلى السير مسرعاً هابطاً التل نحو الخليج حيث ترسو «ميليسا».

ـ آلان. . هذا لا يُقدر بثمن، لا يمكنك أن تتخلى عنه هكذا. . .

ـ ولماذا؟ أتخافين أن أجعل منك جارية لي؟ هيا، لنصعد إلى المركب.

وسبحا في المياه الدافئة المنعشة نحو اليخت وصعدا إليه. وكان السوار الفضي ثقيلاً في يدها. وجود ثقيل إضافي إلى جسدها. ونظرت إلى السوار بغبطة، سوف تلمّعه ليصبح براقاً.

وسارا فوق السطح متوجهين إلى المرساة ليرفعاها. وفتحت له القفل وأخذ يرفع السلسلة. ثم استدار إليها، وعيناه تتجولان في جسدها الذهبي. والتقى بعينيها في نظرة حامية كالنار.

وشعرت بشيء يتقلص في معدتها، تقلص قوي من العاطفة جعلها تتنهد بصمت، وأخذها بسرعة بين ذراعيه، والتقى جسداهما المبتلين. وحاولت المقاومة، ولكن آلان شدها أكثر فلم تعد تستطيع المقاومة. وهمست له، وهي تشعر بضعف في ساقيها:

ـ لا!. .

ـ أنت تعنين نعم.

فتأوهت محاولة مقاومة الرغبة التي تتصاعد في داخلها. والتوت بين ذراعيه لتفلت منه.

ـ أرجوك يا آلان. . لقد قلت لك الليلة الماضية. . . أرجوك لا تفعل هذا بي!

ـ لا أفعل هذا بك يا نورما؟ وماذا تريدينني أن أفعل؟

ـ هذا شيء لا أريده.

ـ لا تريدينه؟ ولكن عيناك تقولان شيئاً مختلفاً.

وأغمضت عينيها، وقد أدركت أن الرسالة فيهما واضحة.

ـ أرجوك توقف. هذه ليست تصرفات رجل مهذب يا آلان.

ـ ومن قال إنني رجل مهذب؟

وأمسكت بمعصميه لتبعد يديه عنها. . .

ـ سأدخل إلى غرفتي.

فقال بسخرية:

ـ فهمت.. أنت تلعبين دور الطهارة من جديد، أليس كذلك؟ لا يجب أن تدّعي يا نورما.

وقالت همساً:

ـ أنا أدّعي.. لقد قلت لك يا آلان... أنا لست مستعدة!

ـ لا؟

ـ هل هكذا تغوي جميع صديقاتك؟

ـ لا تكوني كثيرة الفضول.

وللحظات ضاعت في عالم آخر، عالم آلان، وامتلأت عينيها بألوان ناعمة براقة لم تكن تحلم بها من قبل. ونظرت إليه بعد قليل، وعيناه تلمعان وقالت وهي ترتجف من الغضب:

ـ هذه مجرد لعبة لك، أليس كذلك؟ أنت لا تهتم أبداً! كل ما تريد هو أن...

ـ وماذا لديك لتقدميه غير هذا؟

ـ أنا لن أقدم لك شيئاً. اتركني يا آلان، لقد سئمت من هذا!

ـ لم نبدأ بعد.. لا تتلاعبي معي يا نورما، لقد قلت لك مرة... لا تتلاعبي معي!

ـ أنا لا أتلاعب معك. أنت من تتلاعب بي! أتظنني نوع من التحدي تود التغلب عليه؟

ـ أي تحدٍ ممكن أن تقدّميه تمّ التغلب عليه منذ زمن.

ـ اللعنة عليك!

وانفلتت منه بساقين مرتجفين، ثم التفتت إليه، والدموع التي لم تعد تستطيع كبحها، تنهمر من عينيها.

ـ اللعنة عليك حتى الجحيم يا آلان سان كلير!

ونظر إليها وقد ارتفع حاجباه بذهول وقال بصوت خافت:

ـ أظن أنك تعنين ما تقولين.

واستدارت نورما ثانية ودخلت إلى كابينتها، وأخذت تنتحب بإحباط وخجل. ونظرت من النافذة إلى البحر، وقد حوّلت الدموع في عينيها البحر إلى ملايين من البقع الليلكية المتراقصة، ومسحت وجهها المبلل بأصابع مرتجفة، وكان آلان يقف عند الحاجز مستندا بيديه، يحدق في البحر. وانزلق السوار من ذراعها إلى معصمها مصطدماً بالحاجز النحاسي، ونظرت إليه برعب. وأحسّت بحلقها ومعدتها يتقلصان ببؤس. وتقدم آلان منها وقال:

ـ أنت فعلاً تعنين ما تقولين.

ولم ترد عليه، ورفعت نظرها إلى القصر المدمر «ماريبي» والتفت إليها آلان قائلاً:

ـ أنت ما زلت عذراء، أليس كذلك؟

وأحنت رأسها موافقة. فتنهد، ومزيج من الإحباط والغضب على وجهه.

ـ كان عليك أن تقولي لي هذا منذ مدة طويلة يا نورما. كنتِ وفرتي على كلينا الكثير من الإزعاج.

ـ إنه ليس من الأمور التي يقولها الناس لبعضهم، لمجرد أنك أعطيتني هذا السوار الفضي، لا يعني أنني قد أصبحت جاريتك يا آلان.

ـ نورما...

وللمرة الأولى لاحظت أنه يتردد، وتابع:

ـ يجب أن تعترفي أن الطريقة التي تسللتِ بها إلى يختي تعني فقط أنك...

ـ انني ألاحقك؟ وانني بانتظار أن تغويني؟ وتقريباً.. فالفتيات الطيبات لا يقصصن شعرهن ليخدعن رجلاً غريباً للصعود إلى يخته. والفتاة التي تفعل هذا، يكون في ذهنها شيء واحد فقط.

ـ حسناً.. لم يكن هذا في ذهني.

ـ لا؟.. إذاً أخبريني.. ما الذي كان في ذهنك؟

ونظرت إليه بارتباك، وللحظة طويلة حدّقا ببعضهما. ثم هز آلان كتفيه وقال:

ـ الأمر لا يهم.. أليس كذلك؟

واستدار ليذهب نحو الحبال ليرفع الشراع الرئيسي. ووقفت نورما صامتة وسؤاله يدور في ذهنها مرات ومرات.

...

بحلول بعد الظهر كانت شبه جزيرة سيناء تلوح أمامهما. وكان اليوم حاراً، وعندما أصبح الحر لا يطاق، ضخا الماء من البحر ليصباه على بعضهما، بصمت ودون ابتسام. ولكن بحلول الشفق الغربي من حولهما، أدركت أنها مرتبكة. مرتبكة أكثر من أي وقت مضى، حتى خلال تلك الأيام السوداء بعد فقدانها لأبيها.

وبقي سؤال آلان يرن في رأسها.. لماذا تصرفت بهذا الجنون؟ لم تكن قد تصرفت في حياتها بمثل عدم الاتزان هذا.

وكان قريبان من اليابسة حتى أنها اشتمت رائحتها، عطر ثقيل من نبات الصبار وأشجار الصمغ كان يحمله الريح الساخن من أرض سيناء إلى البحر. وكان الغسق بنفسجياً وقرمزياً، وبارداً بما فيه الكفاية لارتداء «تي شيرت» وجينز، وأصبحت الريح تهب ضد أشرعة اليخت، فأدار آلان المحركات، وتنهدت ثم نزلت إلى المطبخ لتحضر شيئاً من الطعام. ونظرت في الثلاجة، واكتفت بإخراج بعض أضلاع الحمل وبعض الخضار...

وكان آلان يستخدم الراديو عندما أحضرت له وجبة الطعام، والسماعات على أذنيه، وهز رأسه شاكراً، وهي تضع طبقه أمامه. وأخذ يصغي بانتباه، ويكتب بعض الملاحظات أمامه. وأخيراً نزع السماعات عن رأسه، وبدأ يتناول الطعام، وقال:

ـ كنت أتلقى التقرير عن الطقس. هناك ضغط جوي يمر فوق المتوسط

الآن.

ـ وهل هذه أخبار سيئة؟

ـ لا.. إنها أخبار جيدة في الوقت الحاضر. ولكن قد يتغير الطقس بعد بضعة أيام، وبقليل من الحظ سوف نبتعد قبل أن يتغير الطقس.

وأكملا الطعام بصمت، ونظر إليها بعينين هادئتين وهو يدفع طبقه بعيداً عنه. وقال لها:

ـ سنكون في خليج السويس بعد نصف ساعة. وفي المتوسط غداً بعد الظهر، إذا سار كل شيء على ما يرام.

ووقف قائلاً:

ـ لنخرج إلى السطح ونراقب اقترابنا من السويس.

ووقفا في الهواء الرطب على السطح، يتأملان صخور شبه جزيرة سيناء وهما يمران بها، كانت الشمس قد غابت، تاركة نوراً قرمزياً في السماء التي كانت تظلم لتصبح قاتمة الزرقة فوق رأسيهما، وبرزت أولى النجوم. فقال لها آلان:

ـ أخبريني عن والدك؟

والتفتت إليه، ولكن وجهه كان إلى الأمام وعيناه تراقبان السماء المعتمة أمامه، فقالت مترددة:

ـ حسناً.. لقد كان رجلاً ضخماً، وكان ملتحياً على الدوام، ولم أشاهده أبداً دون لحية.. أظن أنه كان بحاراً في صميم قلبه. ولكن كان عليه أن يفي بالتزاماته لأسرته.

ـ تابعي...

ـ كان يحب البحر.. كان يبحر كل نهاية أسبوع، كان مركبه يدعى «نورما».. كان يعمل في هندسة المدارس والمستشفيات، وما شابه، ولكن كان يبدو أنه لا يجد عملاً كافياً. ربما لم يحاول أن يعمل بجهد. كان يقنع عندما يكون معه ما يكفي لعيشنا، ولإبقاء المركب مجهزاً.

ـ هل اعتدتِ على الخروج معه؟

ـ نعم.. غالباً. كان يحب الإبحار لوحده. ولكنني كنت أبحر معه كلما استطعت. أيام عطلي المدرسية كنا نذهب إلى كل مكان، النرويج، الدانمارك، فرنسا، وأبعد ما ذهبنا إليه كان إيطاليا، في أحد أيام الصيف.

ـ ولكنك لم تكوني معه في آخر رحلة له؟

وهزت رأسها متذكرة تلك الأيام المرعبة.

ـ لا.. لقد أبحر بعد ظهر أحد أيام الجمعة، وبحلول الأحد لم نسمع عنه شيء. وهبت عاصفة هوجاء، وكان عليّ الانتظار للجمعة التالية قبل أن يجدوا قاربه، وحتى عندما وجدوا القارب استمروا بالبحث عنه.

ـ أنا آسف.

ـ الأمر من الماضي الآن.

وابتسمت ابتسامة صغيرة، فسألها وهو ينظر في عينيها:

ـ كم كان عمرك يومها؟

ـ ستة عشر.

وساد الصمت. ومرت «ميليسا» بمركب شراعي وكان الرجل على الدفة يغني، لحناً فولكلورياً جميلاً وغريباً، لحن يعود إلى آلاف السنين. ووصل إليهما الصوت الحنون عبر المياه، صوت عربي.. صبور.. مستكين.. ميال للحزن. وما إن تلاشت الأغنية وراءهما حتى أمسكها آلان بذراعين حنونتين بشكل مذهل. وشدّها إلى الخلف حتى ارتاحت إلى صدره، فوضعت رأسها على كتفه، واستراحت بين ذراعيه بهدوء. وقال لها:

ـ وكيف تدبّرت أمورك؟

ـ بشكل سيء. لقد بكيت حتى جفت دموعي لأسابيع، ثم صُدمت بأنني لن أراه ثانية. وعدت للبكاء مجدداً لأيام. لم يكن هناك قبر له لأبكي فوقه. ثم أدركت أن البحر قبره... وضريح ذكراه.

ـ ووالدتك؟

ـ كل ما أعرفه عنها قبر رخامي.. الأمر مثير للأحزان. أليس كذلك؟

وضحكت، ولم تكن ضحكتها بعيدة كثيراً عن البكاء. ذراعاه كانتا دافئتين حولها، وصدره العريض كأنه الوسادة لكل آلامها وارتباكها. وكان الغسق يتحول إلى الظلمة. وأصبحت «ميليسا» في خليج السويس الآن، ورائحة الأرض تعبق باتجاههما، رائحة نار المخيمات، والبيوت المعزولة، سقوفها النجوم. هناك، في ضوء الغروب الخافت، لا بد أن يكون العندليب يغني، والرجال يسكنون إلى زوجاتهم، والبعض يلتقي، والآخرون يفترقون.. والحياة تستمر.

وأحسّت بمشاعر في قلبها لم تعرفها من قبل، حنين كان يملأ كيانها. وسألته:

ـ آلان... ألست متزوجاً؟

وبعد لحظة، تركها، فالتفتت إليه. وفي الضوء الخافت استطاعت أن ترى أن عيناه باردتان وصافيتان، وقال ببرود:

ـ اسمعي يا نورما.. لقد قلت لك أن لا تفكري بأي أفكار رومانسية حولي. ألم أفعل هذا؟

وهمست له وقد أزعجتها لهجته:

ـ بلى..

ـ وأنا أعني ما قلته، لا تتورطي معي. أما بالنسبة لسؤالك.. لا.. لم أتزوج أبداً.. هل رضيتِ؟

فهمست ثانية: «أجل».

ـ جيد.. علينا الآن أن نتناوب الحراسة، فالمنطقة مليئة بالقوارب الصغيرة، ولا أريد أن يحدث أي اصطدام قبل أن أصل إلى إنكلترا، وسوف تناوبين عند الصباح من الثالثة إلى السابعة، لذا لو كنت مكانك لذهبت للنوم الآن.. أفهمتِ هذا؟

ـ نعم.. فهمت.

ـ سأوقظك عند الثالثة.. تصبحين على خير يا نورما.

ـ تصبح على خير.

وسار نحو غرفة القيادة ليشعل الأضواء على متن اليخت. وأخذت الأطباق، وغسلتها في المطبخ ثم تمددت على المقعد، وهي تحس بالتعب..

ولكن، أمضت وقتاً طويلاً قبل أن تنام.

●●●

٦ - جراح قديمة

الجو في قناة السويس كان حاراً، والإبحار فيها طويل مضجر. وجلست نورما تعبة في ظل غرفة القيادة، تراقب الصحراء على الجانبين، التي تبرز قليلاً من فوق جدران القناة الإسمنتية. وكانا قد مرا عبر البحيرة المرة الكبرى عند الصباح، عندما كانت تنام بعد نوبة حراستها الباكرة، لتستفيق وتجد أن «ميليسا» قد أصبحت داخل القناة الطويلة.

حلمها برؤية الأهرامات يبدو أنه لن يتحقق، كما أدركت. وحدقت في التلال الممتدة من حولها، وفكّرت بآلان.. لقد كانت ردة فعله غاضبة عندما سألته عن الزواج... لماذا؟ هل حدث شيء له، شيء جعله يشعر بالمرارة تجاه النساء! هذا، على الأقل، قد يفسر تصرفه القاسي المرير نحو المرأة. فهل سبّبت له امرأة الأذى، امرأة كانت قاسية وحمقاء. إنها بحاجة لأن تعرف عنه أكثر، لأن تجد أشياء أكثر عنه، لتتمكن من أن توضح مشاعرها نحوه، ربما كابينته ممكن أن يكون فيها شيء ما، ولو صورة مثلاً، وقررت أن تتسلل إلى كابينته في أول فرصة، وترى ما تستطيع أن تجده.

وامتدت القناة أمامها، تغلي من الحر. موجة هواء ساخن تلفح كل شيء، وكأنما الأرض تشتعل بالنار. السماء لم تعد زرقاء، بل رمادية غامقة معتمة، والهواء رطب. وخرجت نحو السطح، ترتدي البيكني وقبعة

www.liromancia.com

قش. الأيام القليلة الماضية على متن «ميليسا» أزالت كل شحم زائد في جسدها، وأصبحت نحيلة، واكتسبت اللون الأسمر اللذيذ، لو أن شعرها فقط يطول بسرعة أكثر! إنه ما زال كتلة قصيرة ذهبية، وقد سارعت الشمس في تحويله إلى اللون البلاتيني الأبيض عند قمته، حتى بدا وكأنه الخوذة. ومع ذلك فقد قال آلان عنه إنه جذاب، وتذكرت أصابعه القوية وهي تمر برقة وإثارة من خلاله، وأحسّت برعدة..

كان واقفاً على السطح يراقب القناة أمامه من خلال منظار فقالت متذمرة:

ـ الجو رطب، ولا أحبه، وللسماء لون رهيب.

ـ أجل، وأنا لا أحبه أيضاً. يمكن أن نواجه طقساً سيئاً في وقت قريب كما تنبأ مكتب المراقبة الجوية.

ـ وهل تعتقد هذا؟

ـ أجل.. ويجب أن تنتبهي بشكل خاص إلى تقرير الطقس هذه الليلة.

والتفت إليها، وطافت عيناه فوق جسدها.

ـ يبدو أن ميليسا قد أفادتك.

ـ كنت أتمنى لو أن شعري يطول بسرعة.

ـ النساء دائماً تافهات... في الواقع قصة الشعر هذه تناسبك تماماً يا نورما.

ـ أتظن هذا؟ في الواقع أكثر الناس تفاهة ممن قابلتهم في حياتي كانوا من الرجال.

ـ ربما، ولكن ليس بالنسبة لأمور مثل شعرهم أو ثيابهم... أتمنى لو أننا نخرج من هذه القناة اللعينة إلى المتوسط، فلا تعجبني فكرة مواجهة عاصفة بوجود بحار واحد هو أنت!

ـ وما المشكلة معي؟ ألم أكن ناجحة؟

ـ أجل.. أعتقد أن ما قلته ليس عادلاً، لقد كنتِ رائعة. ولم أقصد ما

قلته كما بدا لك.

ـ إذاً ستواجه العاصفة معي؟

ـ سنرى...

وأحسّت وكأنه يصرفها، فابتعدت عنه غاضبة.. لماذا لا تستطيع أن تخترق دفاعاته؟ لماذا عليها هي أن تخرج دائماً مهزومة وباكية من صداماتهما؟ اللعنة! لو تستطيع أن تؤثر عليه بطريقة ما...

في منتصف بعد الظهر كانا يمران بآخر مئة يارد من القنال. ليدخلا بحيرة ميناء بورسعيد القذرة، من الصعب التصديق أن مياه المتوسط النظيفة الزرقاء لا تبعد كثيراً عن هذا الميناء المكتظ الرطب. ورفعا كل الأشرعة المتوفرة معهما، وهما يخرجان من بين الحواجز الإسمنتية عند مدخل الميناء، ودفعت ريح منعشة «ميليسا» إلى الأمام باتجاه الأمواج الزرقاء، وثبّت آلان الحبال، وقال إنه سوف يتفحص المحرك الأيمن لليخت.

ـ صوته لا يعجبني.. ربما يكون هناك مشكلة صغيرة. والأفضل أن يكون المحركان جاهزان في حال قدوم الطقس السيء.

كانت تسمع آلان، وهي واقفة على السطح تراقب، يعمل في المحرك، ونزلت إلى الكابينة لتحضر كتاباً تقرأه، وكان باب كابينته مواربا، وترددت للحظة، وقلبها يخفق بشدة، آلان سيكون مشغولاً لساعة على الأقل. فهل تستطيع ترك مكانها على السطح دقائق؟ ودفعت الباب ودخلت، وقد تملكها شعور بأنها تتجسس..

وتطلعت من حولها. فوق الطاولة الصغيرة، رف كتب، وتقدمت لتنظر إلى الكتب هناك، مزيج غريب، كتابان عن الملاحة، بضعة نسخ قديمة من مجلة التايم، بضع قصص مثيرة، مختارات من الشعر، بعض الكتب بالفرنسية، كتاب في الميكانيك، نسخة مغلفة بالجلد من رباعيات الخيام، ومدّت يدها وأخذت الكتاب وفتحت الصفحة الأولى منه.

كان عليه إهداء بخط أنيق لامرأة يقول بكل بساطة: «إلى آلان.. مع

كل حبي» دون توقيع، وأحسّت بالغيرة تسري في جسدها وهي تعيد الكتاب، من هي التي تمنح كل حبها لآلان؟

تحت رف الكتب، ألبوم صور، تفحصته بفضول، بضع صور لرجل، فضي الشعر رجّحت بأنه والد آلان، وصورة امرأة مسنّة يجب أن تكون والدته، من تشابه العينين، وصور أخرى لمراكب، وأخرى لهليوكبتر تطير مرتفعة قليلاً عن الأرض، وحدقت بالصورة، الطيار كأنه آلان، وإلى جانبه امرأة، لها شعر بني طويل وترتدي نظارة، وفتشت في المجموعة محاولة معرفة شيء عن آلان.

على الطاولة وجدت عدة رسائل، وفواتير، وسندات، ثم وجدت رسالة فتحتها. كانت تبدأ بكلمات «يا رجلي الحبيب...» وبدأت الغيرة تتآكلها كالأسيد، وتطلعت بنهايتها لتجد الإمضاء «المخلصة لك جودي»، واهتزت الرسالة في يدها. هل من حقها أن تقرأها؟ بالطبع لا! الخط كان يشابه الإهداء على كتاب الشعر، وكرهت نفسها لفضولها هذا، ولكنها أمسكت بالرسالة وهي تعلم بأنها إذا لم تقرأها الآن فسوف تطاردها الأفكار حولها إلى الأبد. وكان التاريخ منذ بضعة أشهر، وقرأت أول سطر، وارتعدت عندما فتح الباب ودخل آلان، وهو ينظف يديه بخرقة من القماش.. والتقت عيناه بعينيها بدهشة باردة:

ـ ماذا تفعلين هنا؟

وأسرعت إلى إخفاء الرسالة خلف ظهرها.

ـ لا شيء. كنت أبحث عن كتاب لأقرأه.

ونظر إلى الطاولة، ثم إليها ثانية، وبدا عليه الغضب.

ـ ماذا تخبئين وراء ظهرك؟

فهزت رأسها، وجف فمها من الخوف.

ـ لا.. لا شيء.

ومد يده!

ـ اعطيني ما بيدك!

ـ إنه لا شيء.. مجرد.. مجرد كتاب.

وبغضب، أدارها، وأخذ الرسالة من يدها، وما إن استدارت ثانية حتى شاهدت الشر في عينيه، وظنت أنه سوف يضربها، فصاحت:

ـ آلان...!

وقال بصوت أجش وقد حوّل الغضب وجهه إلى اللون الأبيض.

ـ إذاً، أنت تضيفين التجسس إلى جميع مزاياك، اللعنة عليك! ماذا كنت تفعلين بحق الشيطان... أتتجسسين عليّ في هذه الرسالة؟

ـ أنا...

وأغلقت فمها.. بماذا تستطيع أن تبرر عملها؟ أتقول له: أظن أنني واقعة في حبك.. وأحتاج أن أعرف المزيد عنك؟ وقالت:

ـ أريد أن أعرف المزيد عنك يا آلان... أنا...

وتجهم وجهه غضباً، غضب لم تستطع فهمه، هل هو ألم؟ وبخفقة قلب باردة ومؤلمة أحسّت بأنها متطفلة، لقد تطفلت على منطقة خاصة من حياة آلان لم يكن يريد أن يفكر بها ثانية. فقالت:

ـ أنا.. أنا آسفة.

وقال لها بصوت أجش من الغضب:

ـ أيتها المتسللة الحمقاء!

ورمى الرسالة على الطاولة ومدّ يده السمراء إليها بوحشية، وشد مؤخرة شعرها، وجذبها قريباً منه، حتى أنها شهقت من الألم. فصاحت، ويدها تضغط على عضلات صدره:

ـ آلان... لم أقرأ الرسالة، أقسم لك!

وكانت عيناه مثبتتان في عينيها، والتعبير فيهما يتغير من البرودة إلى شيء آخر، شيء جعل ساقيها ترتجفان، وقلبها يخفق. وهمس بصوت خفيف.

ـ يا إلهي كم أنت جميلة!..

وبشهقة خفيفة، وجدت نفسها في أحضانه، وبعد قليل، وبالتدريج،

شعرت بأن الخجل والأخلاقيات قد بدأ بالتبخر، مثل الضباب تحت أشعة الشمس. إنها تريده، تريده لدرجة الألم. لدرجة أن قلبها يتمزق وأغمضت عينيها وشعرت بأنها تسبح في بركة زيت ثقيل. ثم فتحتهما لتنظر في عينيه، كانتا تحتويان تعبير الانتصار، باردتان، بحيث جعلتاها ترتجف حتى العظام. فهمست:

ـ هذا لا يعني لك شيئاً، أليس كذلك؟ إنك لا تهتم أبداً بمشاعري.

ـ وما المعنى في كل هذا، إنه حالة انجذاب فقط، ليس أكثر.

ـ إذا كنت تؤمن بهذا، فأنا أرثي لحالك.

ـ وهل أنت خبيرة.. أيتها الطاهرة الصغيرة؟

ـ طاهرة أم لا... يبدو أنني أعرف الكثير عن هذا أكثر منك، إن ما تبغيه لمجرد الرغبة، هو أعلى تعبير عن الحب بين اثنين من البشر.

ـ الحب بين اثنين من البشر! وفّري عليّ سماع هذا، لقد اكتفيت منه، وممكن أنك عرفتِ لو أنك قرأتي الرسالة!

ـ من هي جودي؟ امرأة أحببتها؟

ـ أجل، امرأة أحببتها، فيما مضى.. قبل أن أكتشف أن الحب غير موجود.

ـ إنك كمن يقول إن السماء غير موجودة.. ما تقوله غير معقول.. هل آلمتك كثيراً؟

وابتعد عنها، وقد اسودّت عيناه، وقال وعضلات فكه تتقلص:

ـ أجل.. لقد آلمتني كثيراً. ولكنها غلطتي، غلطتي الغبية لأنني ظننت أنني أحببتها...

ـ أخبرني بالأمر.

والتقت عيناه بعينيها وفيهما ذلك التحدي الذي اعتادت عليه وقالت له بنعومة:

ـ الأفضل أن تفعل، الأمر يحرقك من الداخل يا آلان. ويوماً ما سيخترق قلبك... أرجوك أخبرني...

ـ ولماذا أضيع وقتي ووقتك. إنها قصة معروفة.

ـ ألأني لست شيئاً لك، لأنني لا أعني أي شيء لعين لك، ألهذا لا تريد إخباري.

وفجأة وضع يده على خدها، ناعمة رقيقة حنونة، كيد أبيها، تذكرتها بضبابية من أيام طفولتها:

ـ أنت لست لا شيء يا نورما. أنت لست لا شيء، وهذا نصف المشكلة.

وخفق قلبها، ولكنها علمت أن عليها أن تكون حذرة، ويجب أن تجبره على إخبارها بأمر جودي، وإلا لن تستطيع الاقتراب منه ثانية.

ـ هل تخلت عنك؟

وابتسم آلان ابتسامة قاسية مليئة بالألم.

ـ اسمها جودي ويلفورد. كانت جميلة جداً. وكانت تعني الكثير لي، بعد أن تقابلنا.. أعتقد بأنني جننت بها قليلاً، وقررنا الزواج.. اشتريت لها مئات الهدايا.. هدايا مجنونة، حتى قبعة من الفرو. لم أكن أعرف ما هي... بعض الناس حاولوا إخباري، أحد أعز أصدقائي حاول إخباري، ولكنني فقدت أعصابي وضربته، أستطيع تخيل وجهه حتى الآن.

وأصغت إليه نورما بصمت، كم كان حبه كبيراً حتى يؤلمه هكذا، وبهذا العمق؟ وهل باستطاعته أن يشعر بشيء مماثل مرة أخرى؟ وكأنما قرأ أفكارها فابتسم وقال:

ـ إنه ليس الشعور الذي أريد أن أحسّ به ثانية. لقد تحطم إيماني بالطبيعة الإنسانية.. عندما أسست مصنعي، استدنت الكثير من المال من المصرف. وفي السنة الأولى حدثت كارثة، اندلعت النار ودمّرت بعض النماذج المهمة التي كنا نبنيها، وخسرنا عقداً ضخماً لهذا السبب، والأسوأ من هذا، أن أحد مهندسينا هرب إلى شركة بناء طائرات في بلجيكا وأخذ معه خرائط ذات أهمية كبيرة. وقبل أن نستطيع فعل شيء، كان البلجيكيون ينتجون الطائرات. وهذا أمر مؤلم يا نورما، أن تري

الآخرين يصبحون أثرياء من وراء تصميم بذلت الدم لتحقيقه.

وهزت رأسها، وهي تتوق لتحتضنه، ولكنها علمت أن عليها البقاء هادئة، وتابع كلامه:

ـ بعد كل كارثة، كان المال يتناقص بين يديّ ويتناقص، وبدأت محبوبتي جودي تبعد وتبعد، وتبرد وتبرد، وكان المصرف لطيفاً معي قدر استطاعته، ولكنني أصبحت في وضع بائس. فبين المصنع وجودي أصبحت حياتي ممزقة.. ولو استطاع والدي لساعدني ولكنه كان يمر بظروف صعبة بدوره. كان مشغولاً بتصميم «ميليسا»، وبحاجة ماسة لرأسمال، حسناً.. أتى الظرف المناسب عندما أخفقنا في العقود، ووجدنا أنفسنا مدينين بملايين الجنيهات في أمكنة مختلفة، وكنت بحاجة ماسة للعون... حتى ولو لقليل من التفهم. ولكن يبدو أن جودي لم تكن تفهم. تريد أن تعرف أين ذهب مالي... وأين ذهبت الهدايا الغالية والأوقات السعيدة، ولم أستطع فهمها يا نورما. أعتقد أن هذا يبدو كالجنون الآن، ولكنني بكل بساطة لم أستطع التصديق بأنها كانت مهتمة بالمال أكثر من اهتمامها بي، وكان هذا مني غرور الرجال. وهكذا حاولت شرح الأمر لها. وكل ما استطاعت استيعابه أنني لم أعد أملك المال.. وهكذا تركتني...

ـ آلان...

ـ تركتني... وفي جيبها ثلاثة تصميمات من آخر تصميماتي. لقد تعلمت من ذلك النذل الذي هرب إلى بلجيكا، وكان عندها تمييز كافٍ لتعرف التصميم الثوري المناسب عندما تراه. وهكذا أخذت ثلاثة تصميمات لبناء طائرات اقتصادية خفيفة إلى شركة منافسة وقدّمتها مع جسدها لصاحب الشركة، وكان عرضاً لم يستطع رفضه. وهكذا، بينما أناضل كي أفي بالفواتير بمليون جنيه، وبقلب محطم، كانت قد أصبحت زوجته، وامتلكت قصراً في كومبريا، وآخر في اسكتلندا.

وصمت قليلاً، فقالت نورما:

ـ ثم ماذا حدث؟

ـ ثم بدأت العمل من لا شيء... استطعت أن أدفع أجور موظفيّ بطريقة ما... وكانوا متفهمين جداً... وأنجزنا بعض التصميمات، وانتظر المصرف، باركهم الله، ونفّذنا بعض العقود. وفي نهاية السنة المنصرمة أصبحنا متعادلين تقريباً. وفي الوقت الحاضر يدرس البوليس الألماني أحد تصميمات طائرات الهليوكوبتر، من أجل الدوريات الجوية، وإذا وافقوا عليها فهذا يعني إنتاج ألفي قطعة خلال الستة أشهر القادمة. وأحاول أيضاً أن أبيع بعض الطائرات الجاهزة إلى السعودية.. وهو نوع قد يستخدمه الأمراء في التنقل لحضور الاجتماعات.

ـ وجودي؟

ـ نلتقي معاً، بالطبع. ولم أترك ما حدث يظهر عليّ أبداً. وهذه الرسالة التي كنت تقرأينها. كانت عرضاً منها لمقابلتي في مكانٍ ما، لإقامة علاقة إضافية معي. ولقد استبقيتها للذكرى كشاهد على شرف وصدق البشر... على كل الأحوال.. عندما أصبحت الأمور على ما يرام لي وللشركة، كنت قد أصبحت مرهقاً، واحتجت إلى فرصة، وهكذا اقترح عليّ والدي أن أحقق هذه الفرصة، وأمرني أن آخذ «ميليسا» في أول تجربة إبحار لها، وأحصل على عطلة في نفس الوقت. وهكذا أبحرت مع «بيت» البحار الذي أصيب، ووصلنا إلى كينيا، حيث دخلتِ أنت وأصدقاؤك في حياتي.

وتنهدت نورما واكتشفت أن راحة يدها أصبحت متعرقة، وقالت:

ـ لقد بدأت أفهم لماذا غضبت كثيراً في مومباسا... عندما أفكر كيف تصرف بيتر والآخرون.. يا إلهي! دمي يغلي من الغضب! آلان.. هذه قصة شجاعة خارقة، وأعتقد أنك أشجع رجل قابلته في حياتي.

والتقت عيناه بعينيها، ثم ألقى رأسه إلى الخلف وضحك. وقال لها وهو يبتسم:

ـ نورما.. كم تبدين طفلة أحياناً!

ـ وأعلم الآن لماذا تكره النساء، ولماذا تريد أن تحوّل كل عاطفة إلى رغبة فقط.

وسمعا قرقعة بسيطة عند الطاولة.. فنظر إلى مصدر الصوت، الساعة الصغيرة قرب المصباح كانت تتحرك، تصطدم بالمصباح ثم تعود، ثم ثانية. وأدركا فجأة أن «ميليسا» قد تغير نمط إبحارها من النعومة إلى القساوة. وأخذت تتحرك بقوة جعلت نورما تشعر بعدم الارتياح، ونظرت إلى آلان، فتنهد، وبدت على وجهه نظرة قلقة:

ـ لقد وصلنا منطقة الضغط الجوي المنخفض. أظن أن من الأفضل أن نصعد إلى السطح، نقفل جميع الفتحات. والأفضل أن لا نرتبك.

على السطح كان الظلام مخيماً، ما عدا شعاع أصفر عند الغرب يشير إلى أن الشمس لم تغب تماماً بعد. وكانت «ميليسا» لا تزال تشق صفحة المياه بمقدمتها التي تشبه السكين، ولكنها بدأت الآن تغوص وترتفع، مع أن الأمواج لم تصبح عالية بعد، وتحركا فوق السطح بسرعة، وأغلقا كل الفتحات والنوافذ... ولاحظت أن آلان كان يتفحص بعناية الزورق الصغير في مؤخرة اليخت، وأدركت للمرة الأولى أنهما حقاً قد يواجهان طقساً رديئاً.

بعد أن أمّنا كل شيء على السطح، أخذت الأشرعة تحدث أصواتاً حادة وتنفخ بفعل الريح المتزايدة، ونظر إليها آلان مفكراً، فسألته:

ـ هل تريد أن تنزلها؟

ـ ليس بعد. إذا ساءت الأمور أكثر، أجل... لنذهب ونستمع إلى تقرير الطقس.

بينما كان آلان يستمع إلى التقرير والسماعات فوق أذنيه، حضّرت نورما كوبين من الكاكاو الساخن. لقد أصبح الكثير من الأمور واضحاً لها حول آلان خلال النصف ساعة الأخيرة حتى أنها لم تستطع استيعابه كله، وحملت الكاكاو الساخن إلى غرفة القيادة، وبدا على آلان التفكير الجاد وهو يدوّن آخر الملاحظات أمامه.. وسألته:

ـ هل الأنباء سيئة؟

ـ جداً، هناك عاصفة قادمة نحونا، وبسرعة. وأتساءل ما إذا كان علينا العودة بسرعة إلى بورسعيد للالتجاء هناك...

ـ هل أنت قلق؟

ـ لا أريد خسارة صواري «ميليسا».

وابتسم قليلاً وأضاف:

ـ لا تظني أنني أحاول النيل من معلوماتك الملاحية.

ـ ألا تستطيع الوصول إلى الإسكندرية، والانتظار هناك؟

ـ نستطيع هذا. مع إنني لا أحب فكرة الهروب.

ـ ليس هناك جبن في الخوف من البحر.

ـ لديك أسباب جيدة لتعرفي هذا. نعم.. أنت على حق، ولكن الأمر لا يجدي إذا أدرتِ ظهرك للبحر. ولكنني أكره أن أخذل والدي.

ـ آلان.. جودي ويلفورد كانت ساقطة...

ـ هذا كلام كبير يصدر منك.

ـ أشعر به، ما حدث لك.. لا يعني أن كل النساء سواء... ولا يجب أن تشعر...

ـ أعتقد أنني أعرف ماذا تحاولين أن تقولي... أنت تعتقدين بأنني أشعر بالمرارة.. أليس كذلك؟

ـ حسناً...

ـ أنت مخطئة يا نورما. أنا عملي فقط. وأكبر سناً منك. لذا، أرجوك، لا تلقي عليّ محاضرات عن الأخلاق الإنسانية.. أوكي؟

وهزت كتفيها، وهي تجلس وتقول:

ـ أوكي آلان.. هل أستطيع أن أسأل سؤالاً واحداً بعد؟

ـ ماذا؟

ـ حول جودي.. لقد كتبت لك، تلك الرسالة، هل قبلت دعوتها؟ وكيف تشعر نحوها الآن؟

ـ أتعنين، هل أركض إليها لو دعتني ثانية؟

ـ شيء من هذا القبيل.

ـ هل يمكن لك أن تكرهي شخصاً كنت تحبينه فيما مضى؟

ـ ليس إن كان حباً حقيقياً.

ـ هذه مسألة لم أجد لها جواباً بعد يا نورما. أرجوك لا تتحدثي بعد عن حياتي الخاصة، الأمر يضجرني. علينا الآن أن نفكر بأنفسنا وباليخت.

ونشر الخريطة أمامه وأشار بإصبعه فوق سوريا، وقال:

ـ من هنا العاصفة قادمة.

ـ من خلفنا؟

ـ أجل.. لذا، إذا كان علينا أن نعود إلى مصر، فيجب أن نسرع، وأنا شخصياً أشك في أننا سننجح. هل تريدين أن نحاول؟

ـ هذا عائد إليك يا آلان!

وتلاقت عيونهما، وفي الصمت الذي تلا، تهاوت ميليسا بعنف مفاجىء، ثم استقرت، ثم عادت ترتفع وتهبط ثانية. ودوى صوت عنيف هز اليخت... فقال آلان بسرعة:

ـ لم يعد الأمر بيدي...

●●●

٧ ـ سنكون على ما يرام

ومدّ آلان يده إلى الخزانة وراءه وأخرج سترتي نجاة برتقالية اللون، وأعطاها واحدة، وقال:

ـ ارتدي بنطلون جينز وكنزة سميكة، ثم ارتدي سترة النجاة. ولا تخلعيها حتى أقول لك، من الآن وصاعداً، ستعيشين وتأكلين وتنامين وأنت ترتدينها.. هل فهمت هذا؟

وهزت نورما رأسها، وخرجت نحو كابينتها لتفعل ما قاله لها. كانت سترة النجاة ضخمة، ولكن خفيفة الوزن، وضغطها على صدرها أعطى نوعاً من الطوارىء في نفسها تحضيراً لما هو قادم. وعندما عادت إلى غرفة القيادة، قال لها آلان وهو يشير إلى عقدة في السترة.

ـ ما إن ترتطمي بالمياه، اجذبي هذه، وسوف تنتفخ في خمس ثواني، وإذا بدأ الهواء يخرج انفخي في هذا هل فهمتِ؟

وأشار إلى أنبوب قصير إلى جانب العقدة، ثم مدّ يده حول خصرها وربط حزاماً من النايلون حولها، وقال:

ـ عندما تخرجين إلى السطح علقي هذا هنا.

وعلّق الطرف الآخر للحبل في حلقة مثبتة في أرضية السطح:

ـ تعالي.. لننزل بعضاً من الأشرعة.

الريح الشديدة كانت تجعل من إنزال الأشرعة أمراً صعباً، وأحرقت

www.elromancia.com

الحبال الفولاذية يدي نورما وهي تنزلق بسرعة، وأنزل آلان الشراع الكبير وربطه إلى السارية، وأصبح البحر هادراً الآن، وتحول إلى اللون الأسود، وفي الظلام بدأت الريح تعوي، وتنثر الرذاذ المالح على سطح «ميليسا».. وكانت نورما شاكرة لوجود الحزام الذي يربطها بأرضية اليخت. لقد مرّت بها عواصف من قبل، في المانش، ولديها فكرة كافية عما سيحدث، وإذا تم كل شيء بسلام، فسوف تتغلب «ميليسا» على العاصفة دون صعوبة.

ـ سوف أشغّل المحركات الآن، ولا يعود أمامنا شيء نفعله سوى أن نجلس متيقظين.

وبدأت تحسّ بضجيج المحركات المريح تحت قدميها، وأخذت «ميليسا» تعلو وتنخفض وهي تشق الماء من جديد. تحرك مخيف غير مريح، ولكنه لم يصل بعد إلى درجة الرعب، وضغط آلان على زر في لوحة القيادة المعقدة إلى جانب المقود، وقال لها باختصار:

ـ إنه الرادار. معظم الإلكترونيات في اليخت من مصنعي. هل لاحظتِ الشبكة على الصاري؟ سوف يرسل إشارات إلى أي رادار في المنطقة، فيظهر اليخت على شاشتهم، ليقول لهم إننا هنا. وسأستخدم رادارنا أيضاً.. لما هو أسوأ.

وتقدمت لتقف إلى جانبه، وأخذ الخط الشعاعي يدور بانتظام، وكأنه عقرب الساعة، وسيظهر أي شيء أكبر من زورق تجديف كنقطة ضوء عليه.

ـ في هذا الطقس الرديء يمكن للأمواج العالية أن تظهر أيضاً من وقت إلى وقت، وإذا حدث أي اضطراب اليكتروني سيظهر على الشاشة. الآلة جيدة، فقد صممتها بنفسي، وستعطينا إنذاراً بوجود أي شيء في المنطقة على بعد خمسين ميلاً منا.

وهزّت نورما رأسها. ثم جلست على المقعد، ولفّت نفسها ببطانية وأمسك آلان بالمقود، وراقبه ويداه القويتان تستندان إلى المقود. هذه

الرحلة على متن «ميليسا» كانت كرحلة إلى داخل حياة شخص ما. كذلك كرحلة إلى داخل قلبها، كم من توقعاتها وأحلامها تغيرت منذ ذلك اليوم الذي التقيا فيه! وضحكت بصوت خفيف. فسألها دون أن يلتفت:

ـ ما الذي يضحكك؟

ـ كنت أفكر بما قلته لي منذ بضعة أيام.. «ليس في البحر الأحمر ورود» يبدو الأمر مضحكاً الآن.

وازدادت حدة الريح تدريجياً، واستيقظت من إغفاءة خفيفة لتجد «ميليسا» تتطاير مع الريح كورقة الشجر، وشعرت بالقلق، آلان كان لا يزال يمسك بالمقود، ووقفت إلى جانبه:

ـ أتريد بعض الكاكاو؟

وردّ عليها وهو يلوي رقبته من التعب:

ـ فكرة جيدة.

ونظرت إليه بقلق، الساعة تقارب التاسعة، وهو وراء المقود منذ وقت طويل، ونزلت إلى المطبخ، وكانت تفقد توازنها عندما يغوص اليخت ثم يرتفع ثانية. وهناك وجدت عدة أشياء تتحرك بغرابة: ثلاث زجاجات عصير انقلبت وأخذ ما فيها ينساب إلى المغسلة، عدة أشياء غير ثابتة في الثلاجة بدأت تضرب بعضها البعض، وطار الحليب فجأة من الوعاء في الهواء لينتثر على الأرض، ونظفت نورما المكان، وبحذر نجحت في صنع كوبين كبيرين من الكاكاو وحملتهما عبر السطح، وانسكب نصف محتوياتهما على الطريق.

تحرك المركب بدأ يقلقها، وارتشفت الكاكاو ومعدتها تتقلص. لا يمكن أن يسبب لها شراب خفيف كالكاكاو الغثيان؟ ربما الحليب فاسد؟ وشمّت الحليب، أجل.. له رائحة غريبة.. مثل.. مثل...

ووقفت بسرعة، وإحساس غريب يتصاعد في داخلها، وتوجهت نحو الباب، وأسرع آلان للإمساك بها وقال:

ـ إلى المغسلة بسرعة...

وأسرعت عائدة إلى المطبخ، ومالت فوق المغسلة وأخذت تتقيأ بقوة، اهتزاز اليخت كان مرعباً، اهتزاز كان يجعلها تشعر بالألم وراء عينيها، ووقع طبق كبير عن الرف وانكسر فوق الأرض.

مهما كلّفها الأمر، يجب أن تتغلب على هذا الدوار.. لا تستطيع أن تترك آلان يصارع العاصفة وحده، وبدأت تدور في المطبخ محاولة تثبيت كل ما تستطيعه من الأشياء، وتضع الباقي في الخزانة.. ثم عادت تتقيأ من جديد.

وغسلت وجهها، وهي تشعر بالحرارة، ثم عادت إلى غرفة القيادة. وعلى الضوء الأصفر هناك كانت مع آلان في عالم منفصل عن الكون، بوجود النوافذ مغلقة والعتمة من حولهما، لولا أن برق العاصفة، وبعض الموج كان يظهر من النوافذ.

ـ هل سنكون بخير؟

ـ هذا لا شيء.. «ميليسا» مصممة لمثل هذا الطقس.

ولكنه بدا متعباً فقالت له:

ـ آلان دعني أمسك بدفة القيادة لفترة.

ولكنه تردد، ثم هز رأسه وقال:

ـ لا.. أنا بخير، وأستطيع أن أستمر هكذا طوال الليل.

ـ وفي الغد.. طوال يوم الغد؟ دعني أساعدك يا آلان. كنت أجيد هذا دوماً.

ونظر إليها بسرعة، ثم تراجع ليترك لها الدفة، وشهقت وقد أحسّت بالمقابض الخشبية تتحرك بقوة تحت أصابعها، لقد أصبحت الآن وكأن لها حياة خاصة بها، وقال آلان بهدوء:

ـ إنه قاربي بين يديك، فلا تفعلي به شيئاً سخيفاً.

وأحسّت بالدفة بين يديها تشد وتنحرف بقوة غريبة، تهدد بجرها إلى جانب واحد، ثم تغير اتجاه الضغط فجأة مما جعلها تترنح.

ـ التيار قوي... وهذا مسارنا...

وأشار إلى خط فوق البوصلة.

ـ ابقِ اليخت ثابتاً في مساره، أتظنين أن بمقدورك فعل هذا؟

وهزت رأسها بالإيجاب، ثم شهقت وقد أحست بالمقود يجرها من جانب إلى جانب، ووقف آلان وراءها وضغط كوعيها إلى الأسفل قائلاً:

ـ لا يتوجب عليك أن تمسكيه بهذه القوة. أعطيه قليلاً من الحركة، وافتحي ساقيك أكثر.

وأطاعته نورما وفتحت ساقيها بالطريقة التي شاهدت آلان يفعل. وارتاحت ذراعاها. وسألها بعد لحظات:

ـ ما رأيك بهذا؟

ـ أفضل بكثير.

ـ جيد، أنا ذاهب إلى المطبخ لأصنع بعض القهوة، إذا احتجتِ للمساعدة فاصرخي.

وحدّقت من النافذة أمامها، لو أنه كان يعرف كم هي خائفة، لما تركها لوحدها أبداً! وقاومت خوفها بغضب وركّزت على المقود الخشبي الثقيل. الشعور بالمسؤولية كان مقلقاً في البداية، ولكنها نسيت نفسها في أثناء سيطرتها على المقود، وأدركت أنها ممسكة بقلب «ميليسا»، تحاول أن تفرض إرادتها على روح اليخت الجامحة، وتحوّل خوفها إلى إثارة، فهناك فن للقيادة، للتحرك، واستخدمت قوتها ومرونتها للتكيف معها. وتفحصت البوصلة بعناية، تدير المقود بحركات ثابتة خفيفة، كي تبقي مقدمة اليخت إلى الأمام.

ولكنها كانت مهمة قاسية، وبدأت تشعر بكل عضلات جسدها تشتد وتتلوى، وبعضلات جنبيها تؤلمها، وبمعصميها يتوتران. ووصل آلان وتمتم من وراءها:

ـ أسلوبك وكأنه مولود معك..

وتقدم ليشغل المقود الآلي.

ـ لندعه يعمل قليلاً بينما نتناول قهوتنا. ولكننا لا نستطيع تركه طويلاً

في مثل هذا الطقس، فقد يغير الاتجاه.

وجلسا على المقعد الخشبي.. يدها التي أمسكت بالفنجان كانت ترتجف. وابتسم آلان بسخرية:

ـ يبدو أنك كنت تتمتعين بهذا العمل.

ـ فعلاً.. قيادة «ميليسا»، تشعرني بالإثارة.

ـ لنأمل أن تستمر هذه الإثارة عندما تنفجر العاصفة الفعلية.

ونظرت إليه، مشدوهة:

ـ أتعني أن العاصفة ستصبح أسوأ من هذا؟

ـ أسوأ؟ بالطبع، ستكون أسوأ بكثير. هذه مجرد مقدمة.

. . . .

واستيقظت نورما ولديها شعور بأن شيئاً مرعباً قد حدث، كانت قد نزلت إلى كابينتها لتنام حوالي منتصف الليل، تاركة آلان عند المقود، كم يا ترى نامت؟ ونظرت إلى ساعتها، إنها تقارب السادسة صباحاً! لقد مكث واقفاً على المقود طوال الليل! ووقفت على قدميها متثاقلة، وشعرت بتجدد الغثيان. ثم أحسّت وكأن «ميليسا» هبطت من حافة العالم. وخفق قلبها فأسرعت راكضة إلى فوق، وتحرك اليخت يصدمها بجوانبه وهي تسير.

ظلمة الليل، حلّ مكانها، ضوء رمادي مخيف، ودخلت إلى غرفة القيادة لتجد آلان لا يزال ممسكاً بالمقود بقوة، وعضلات ذراعيه البرونزية منتفخة. وأسرعت نحوه، أرضية الغرفة كانت مليئة بمياه البحر، وانزلقت، فتمسكت بقوة بخصره. ثم نظرت إلى خارج النافذة برعب، وهي تشهق للمنظر الذي التقطته عيناها، قطعة أفقية من مياه البحر الخضراء يعلوها زبد أبيض تتجه نحوهما، أول ما استوعبته أنهما غرقا، ثم عاد اليخت إلى الصعود، وانحسرت الموجة العملاقة عندما وصلا إلى قمتها. وتعلقت بآلان عندما صدمت الموجة ميليسا وانتشرت فوق سطحها. وحدّقت بذهول، كان اليخت على قمة واد طويل لا يُصدق من

مياه البحر، منحدر أخضر يفتح فمه وكأنه رؤيا من الجحيم في لوحات القرون الوسطى، وبدأ اليخت يهبط بسرعة خارقة نحو وسط العاصفة في الأسفل. وهما يتجهان إلى قعر جهنم، ودفنت رأسها في كتف آلان، تحدّق بعينين مرتعدتين بجبل الماء وهو يتجمع فوقهما، وأغمضت عينيها بقوة. وهي تشعر بالامتنان في أعماق قلبها لأنها مع آلان، ولأنهما سوف يدفنان معاً تحت هذه الكتلة الضخمة من المياه.

وارتفع السطح ثانية تحت أقدامهما، واخترقت «ميليسا» جانب الموجة وكأنها زورق ورقي في مجرى مياه طاحونة، وشهقت قائلة وهي تمسك بذراعه:

ـ أين نحن الآن؟

ـ في مكان ما قرب اليونان. من الصعب تحديد المكان، فالبوصلة لا تعمل جيداً.

والتفتت لتنظر إلى وجهه فابتسم وقال:

ـ هل أنت خائفة؟

ـ بل مرتعبة.. هل سنموت؟

ـ ليس في هذه السنة... يا إلهي كم أنا تعب.. وجائع...

ـ سأحضر الشاي. أتريد اللحم والبيض؟

ـ أنت ملاك.. وانتبهي لدى استخدامك الطباخ.. للزيت الساخن.

وانتظرت نورما لتصل ميليسا إلى قمة إحدى الموجات، أسرعت نحو المطبخ.. تحضير الإفطار كان مهمة صعبة جداً، واكتشفت أن أفضل ما تفعله هو الإمساك بالمقلاة فوق النار لتوازنها حسب تحركات اليخت. وبهذه الطريقة استطاعت تحضير خليط غير متجانس من اللحم والبيض. وقطّعت بعض الخبز ووضعت الطعام بين طبقين. ثم انتظرت اللحظة المناسبة، وركضت عائدة إلى غرفة القيادة. وقالت:

ـ سآخذ عنك الدفة الآن.

ولكن آلان هز رأسه:

ـ إنها قاسية جداً، ولن تتمكني من الإمساك بها. سنجرّب تشغيل المقود الآلي.

وشغّل المحرك الآلي، وتراجع قليلاً ليختبره. وشقت ميليسا طريقها عبر الموجة التالية، فجلس على مقعده بارتياح، وأخذ يتناول الطعام ببطء، ووجهه تعب وساكن.

ـ ألن تتناولي طعاماً..؟

ـ الأفضل أن أترك معدتي فارغة، إلى أن أتحسن قليلاً.

ـ لا ألومك.

ـ هل هذا شيء عادي؟

وأشارت إلى البحر الهائج في الخارج فأجاب مفكراً:

ـ ليس بالضبط. لم أعرف شيئاً كهذا في المتوسط من قبل. هذه ظروف نادرة، هذه العاصفة سوف تحدث أضراراً في كل أوروبا.

ولاحظت أن وجهه قلق. فقالت متوسلة:

ـ خذ قسطاً من الراحة، سأراقب الدفة بنفسي.

وفرك آلان مؤخرة عنقه، وقد بدا عليه الإرهاق.

ـ حسنٌ جداً، لا تحاولي الإمساك بالدفة، وأيقظيني عندما تلاحظين أي شيء خاطىء... أوكي؟

وهزت رأسها وأخذت الطبق منه. ثم ساعدته كي يقف، ورمتهما حركة البحر عبر غرفة القيادة، ووقعت على المقعد، وركزت نفسها على مسند المقعد وفتحت ذراعيها لآلان، وارتمى رأسه على صدرها، فأمسكت به قريباً منها، وضاعت تحت ثقل جسده، وبعد لحظات أحست به يرتاح. وبدأ يتنفس ببطء، ونظرت من فوق رأسه إلى البحر الواسع عبر الزجاج الصغير الذي يفصلهما عن العاصفة، وحاولت أن تحميه من تقلب اليخت.. ونام.

وسط العاصفة في مكان ما قرب اليونان، بدأت أفعالها تحيرها، العديد من الأسئلة راودت فكرها. لماذا قصت شعرها؟ لماذا كانت يائسة هكذا

لتهرب من بيتر ورفاقه؟ وعندما اعترف لها رالف بعلاقته مع جولي، كيف شعرت فعلياً؟ العجب، الارتياح؟ الآن هو الوقت المناسب لبدء البحث في أعماق روحها، في هذه اللحظات المخيفة التي قد تكون آخر لحظاتها! ورقدت حيث هي محتارة في أفكارها لما يقارب الساعة، وآلان نائم، و«ميليسا» تشق طريقها إلى الأمام عبر الشقوق والجبال من مياه البحر.

وتحرك آلان بين ذراعيها. وهز رأسه، فسألته وهي ترفع صوتها فوق صوت العاصفة:

ـ كيف تشعر الآن؟

ـ بشكل أفضل.

ووقف ليمسك بالدفة، وأقفل المقود الآلي. وعادت نورما إلى المطبخ لتحضّر المزيد من القهوة، وما إن عادت حتى كانت الأمواج قد أصبحت قاسية وعاتية. وعندما تصل «ميليسا» إلى قمة الموج لم تعد تنزلق بسهولة فوق حافتها بل كانت تغوص تحتها، وتهتز بعنف، وعند كل هجمة جديدة كانت تصدر أصواتاً مرعبة. وكان آلان يصارع الدفة، ووجهه يلمع من العرق. وارتفع اليخت ثانية فوق موجة ضخمة وتهادت نورما وهي تحمل القهوة وكادت تقع. واستطاعت أن ترى قسماً من الحاجز النحاسي وقد تمزق، وتنهد آلان، ثم، وباصطدم رهيب تراجع اليخت أمام موجة ثانية أعقبت الأولى مباشرة. وسمعت صوتاً رهيباً جعل أسنانها تصطك. ثم أخذت الدفة تدور بين يدي آلان من غير فائدة. وانجرفت «ميليسا» إلى جانب الوجه الأبيض لارتفاع الموج الذي تلا. فصرخت:

ـ ماذا حدث؟

والتفت إليها بوجهه المصفّر من التعب والإحباط.

ـ لقد تعطل المقود، لقد فقدنا السيطرة على الدفة.

وحدقا ببعضهما، وبدأ قلبها يخفق بقوة بين ضلوعها.

ـ أتعني.. أنك لم تعد قادراً على إدارة اليخت؟ وماذا سيحدث لنا؟

ـ علينا أن ننتظر لتعرف النتيجة.

وبصمت راقبا اليخت وهو يرتفع فوق الموج ثم يهبط على غير هدى إلى الأعماق. ووجدت نورما نفسها بين ذراعيّ آلان.

ـ نورما.. أنا آسف.. لم يكن يجب أن تكوني هنا...

ـ لقد اخترت هذا بنفسي. الأفضل لي أن أغرق معك على أن أعيش من دونك يا آلان.

ـ نحن لم نغرق بعد.. لا يزال هناك...

وتوقف، وسمعا صوت إنذار إلكتروني، وركضا نحو الرادار، ليشاهدا بقعة ضوء خضراء تلتمع فوق الشاشة، تاركة وراءها شهباً أخضر. وعادت الإشارة ثانية، ولمعت البقعة الخضراء مرة أخرى.

ـ إنها سفينة.

ـ أجل.. سفينة كبيرة.

ـ هل هي قادمة باتجاهنا؟

ـ انتظري..

وأطفأ جهاز الإنذار، ثم ضغط على عدة أزرار في لوحة الرادار. وقال بهدوء:

ـ أجل.. إنها قادمة باتجاهنا.

ـ وهل سيروننا؟

ـ ربما لا.. فهذه الأمواج أعلى من جسم «ميليسا»، وسوف نظهر على شاشتهم وميضاً خاطفاً، هذا إذا ظهرنا.

ـ سأرسل لهم إشارة نارية، فقد يشاهدونها.

وأخرج مسدس الإطلاق من الخزانة والتفت إلى نورما...

ـ تمسكي جيداً.

وفتح باب غرفة القيادة، ودخلت العاصفة إليهما، غضب ريح ومطر غطت الرؤية وأصمّت السمع، وأخذت مياه البحر تضرب قدميها وهي متمسكة بحبل النجاة، ومدّ آلان يده إلى الخارج، وأطلق النار نحو

العاصفة، وفي بضع ثواني شع النور الأحمر في السماء القذرة فوق رأسيهما، ثم انجرف مبتعداً إلى الأمام. وأطلق النار ثلاث مرات متتابعة، بنفس النتيجة، ثم عاد إلى غرفة القيادة وهو يكاد أن يقع أرضاً. وأغلق الباب وراءه:

ـ هل سيرون الإشارات؟

ـ أشك في هذا، فالريح قوية، إنها تحمل الشعلة إلى البعيد، حتى ولو رأوا شيئاً فلن يستطيعوا معرفة مكاننا... أنت شجاعة جداً.. ولن يستطيع أحد أبداً أن يفعل ما فعلتيه.. أخشى أن لا يكون بإمكاننا عمل شيء الآن، يا عزيزتي. علينا فقط أن نصلي.. كي لا يصطدموا بنا.. أوكي؟

ـ أوكي..

وأمسكت به بشدة، وتمنت لو أن سترة النجاة لا تفصل بينهما، وأراحت رأسها على ذراعه، وأمسكا ببعضهما بشدة، وراقبا الضوء الأخضر على شاشة الرادار، يقترب منهما بسرعة، ولم يكونا قادرين على الرؤية لأكثر من بضع ياردات أمام اليخت.

وفتّشت نورما في ذهنها عن صلوات تتلوها، محاولة السيطرة على الرعب الذي يملأ قلبها، وراقبت الضوء الأخضر على شاشة الرادار ثانية وكأنه نبض منتظم، مخبراً بأن الخطر الزاحف إليهما في قلب العاصفة قد أصبح قريباً منهما، وأحست بخوفها يتلاشى وكأنه حلم رديء وعلمت أن مشاعرها نحو آلان قد أصبحت الآن واضحة. إنها تحبه. كان أمراً واضحاً بسيطاً، حتى أنها احتارت لعدم تمكنها من إدراكه من قبل.

ونظرت إلى وجهه.. كانت عيناه ثابتتان على المطر في الخارج، ومدت يدها لتلمس خده. وفتحت فمها لتقول له ما اكتشفت لتوها. ولكنه سبقها ليقول:

ـ سنكون على ما يرام..

ثم، أظلم المكان في الخارج فجأة، وبدا لهما شيء ضخم عند

المقدمة، مقدمة عملاقة فولاذية، وبين أنيابها زبد أبيض. ودفعت الموجة «ميليسا» إلى الخلف وتوجهت المقدمة السوداء والحمراء نحوهما، تشق البحر المجنون. كانا قريبان منها لدرجة رؤيتهما المسامير التي تلصق ألواحها ببعضها، والصدأ الذي يكسوها، ولم تعد قادرة أن تنظر. فدفنت رأسها في صدر آلان. ومالت الدنيا بها، وارتجفت، ثم وقعت.

. . . .

وعادت إلى رشدها بذعر، ورئتيها مليئتين بالملح الذي كان يحرقها كالنار. وكان الظلام دامساً، وأحسّت بآلام مختلفة، أين هي يا ترى؟ وأدركت أنها ممددة على جنب اليخت، قريباً من النوافذ المستديرة. ونصف طن من الماء المالح مع مجموعة من الحطام حولها. لقد كانت «ميليسا» منقلبة على جنبها.

ثم، بدأ اليخت ببطء يستدير على نفسه ثانية. مرسلاً نورما لترتطم بالمقعد. ووقعت على السطح بقسوة كادت تحطم عظامها. وكان باب غرفة القيادة مفتوحاً، ودخلت موجة قوية إليها من جديد لترميها إلى الخلف. وتندفع من الخارج إلى قلب اليخت. ثم شاهدت آلان، وهو يثبت نفسه بحبل النجاة في غرفة القيادة. وركضت نحوه، وهي تبكي وساعدته في إقفال باب غرفة القيادة، لتمنع العاصفة من الدخول. ثم ألقت بذراعيها حوله، وبكت، فقال لها بخشونة:

ـ هس. . . سنكون على ما يرام.

●●●

٨ ـ حلمي الذي مات

وسارت «ميليسا» مترنحة في العاصفة خلال أيام، والرياح العاتية تتقاذفها دون رحمة نحو إسبانيا. سفينة الشحن التي مرت بهما لم تصدمهما، ولكن الموجة الضخمة التي خلفتها، رمت باليخت إلى جانبه إلى أن أعاده ثقل جسمه إلى وضعه الأفقي ثانية.

وبدأت العاصفة تتلاشى تدريجياً. ورفع آلان الشراع عندما خفّت الريح. ووجهها في نفس الاتجاه إلى أن يتمكن من إصلاح المقود المكسور من قطع الغيار المتوفرة لديه. ولكن كان هناك أضرار أخرى لا يمكن إصلاحها، فعامود الالتقاط الخاص بالراديو حطمته الريح وقذفته المياه بعيداً، ولم يعودا قادرين على التقاط الرسائل. ولم يبقَ لديهم سوى إشارات «المورس» يلتقطونها على جهاز الطوارىء، وأصغيا إلى تقارير الطقس الملاحية بواسطة الترانزستور الصغير.

وكاليخت، كانت نورما وآلان يعانيان آثار العاصفة، كدمات وجروح. ولكن ما كانت تشعر به نورما من فرح طغى على كل شيء آخر. وأحست أنها قد عادت إلى الحياة ثانية لأول مرة في حياتها، وبأنها الآن قد أصبحت مكتملة الأنوثة. وغمرها شعور بالإثارة والسعادة، وبحب آلان إلى ما لا نهاية. وراقبها آلان بعينيه العميقتين، وكأنه يتساءل ما الذي تغير فيها خلال العاصفة. وعملا معاً كفريق متكامل، أفكارهما كانت متجانسة

إلى درجة أنهما أحياناً لم يكونا بحاجة إلى الكلام كي يعبّرا عن رغباتهما.

وبرزت الشمس الدافئة، في الوقت الذي كان اليخت فيه يعبر ممر جبل طارق، بوابة العبور نحو الأطلسي، واستدارا حول قادش، واستلقت نورما على السطح تستقبل أشعة الشمس وهي مرتدية البيكيني. وكان قلبها ينفجر بالحب لآلان، وتاقت لأن تخبره، وأن تكون بين ذراعيه...

غريزتها الأنثوية منعتها من قول أي شيء له، وحتى من أن تظهر له، بالتعبير، كم تشعر نحوه من حب عميق. وأحسّت بأنه يشعر بها، بحاجة لأن يفكر بها، ومنعتها حساسيتها من محاولة دفعه لمعرفة مشاعرها، فآلان يملك روحاً حرة، كما روح اليخت الجميل، ولا يجب عليها أن تقيده، أو تمسك به. فلو فعلت فسوف ينفضها عنه كما تفض اليخت الأمواج العاتية عنه، وتابع طريقه. ولكن، لو جاء هو إليها.. لا.. عندما يأتي إليها، فسيكون هذا إلى الأبد.

عندما يعودان إلى إنكلترا سوف تصرف بعض المال لشراء ثياب جديدة. فقد اشتاقت للإحساس ببرودة القماش الناعم على جسدها بدل البيكيني والتي شيرت. ونظرت إلى السوار الفضي الثقيل حول معصمها.. إنها جارية آلان.. أجل، سوف يجعل منها جارية له.. وأبعدت عنها الفكرة، وعادت إلى التفكير في الثياب، أما بالنسبة لشعرها، فإن عليه بكل بساطة أن ينمو.

السماء كانت زرقاء من فوقهما، وليس كلون النحاس الغامق، كسماء إفريقيا، بل ناعمة دافئة، زرقاء، كشمس أوروبا، تتخللها بضع سحابات بيضاء. وكان الدفء لذيذاً، وأسندت نورما نفسها على كوع واحد، وشاهدت آلان على السطح يحاول وضع الحاجز النحاسي المخلوع في مكانه. فوقفت وتقدمت منه. ساحل إسبانيا البني والأخضر على يمينهما، والهواء يحمل الرائحة الخفيفة للصيف من اليابسة إلى البحر. ووقفت إلى جواره، تراقبه وهو يعمل. واستوى آلان في وقفته، ومدد عضلاته، ثم استدار إليها، فابتسمت له وقالت:

ـ مرحباً..

وابتسم لها ببطء، وإثارة. ولكن كان يبدو عليه توتر لم تفهمه، وكأنها عدوة له، عدو خطر يجب أن يبقي عينه مفتوحة عليه ليراقبه ويحذر منه. وكانت تعلم، إن وقتاً طويلاً سيمر قبل أن يتخلص من عدم ثقته الراسخة بالمرأة.

وحمل الريح إليهما أريج الورود، عطر ورود الصيف الحلو الثقيل... ورفرفت بعينيها من الدهشة، ورفعت أنفها كي تشمّ الهواء المليء بهذا العطر.. وضحك آلان قائلاً:

ـ هذا يحدث أحياناً.. فهناك حقول واسعة من الورود في جنوبي إسبانيا، تُزرع لاستخدامها في استخراج العطور، وعندما تهب الريح تحمل معها الروائح إلى البحر. وقال لي أحدهم مرة إنه استطاع أن يشم هذا العطر في وسط الأطلسي.

ـ تخيّل نفسك وأنت وسط هذه الحقول.

وابتسمت، ناظرة إلى عينيه، ثم تلاشت بسمتها ببطء. عينا آلان كانت تقلبان قلبها رأساً على عقب، وتجعلانها تحس بضعف في ساقيها. ولم تعد، فجأة، قادرة على النظر إليهما، فأحنت رأسها.. وقالت:

ـ آلان... أنا...

وانزلقت ذراعاه حول خصرها، دون إرادة تقريباً، وجذبها نحوه بلطف، وأحسّت بدفء بشرته، وبرائحة الملح فيها. ورفعت رأسها إليه، وضاعت في عمق عينيه الرماديتين. وقال لها بثبات:

ـ اذهبي واستلقي تحت الشمس أيتها الصغيرة.

ـ ولكن.. آلان....

ـ أما ي عمل أقوم به..

فابتسمت له وسألته:

ـ ولماذا لا تتركني إ..؟

وهز رأسه بهدوء وقال:

ـ أنا كبير السن عليك يا نورما، كبير، وقاس، ومتشكك.

ومدّت ذراعيها إلى رقبته، وجذبته إليها أكثر، وهي مصممة على جعله يتجاوب مع عناقها، فاشتدت ذراعاه حولها، بعاطفة هزتها. وسرعان ما أبعدها عنه، فشهقت، وصاح بها وصوته يرتجف:

ـ لأجل الله! ماذا تحاولين أن تفعلي يا نورما؟

ـ آلان.. أريد..

ـ أنت لا تريدين ما تريدينه. لا تتلاعبي معي يا نورما، اذهبي وخذي حماماً شمسياً.

وابتعد عنها وأرجع الحاجز الثقيل مكانه بحركة واحدة، فاستدارت ببطء مبتعدة، وقد لاحظت أن يديه البنيتين القويتين ترتجفان.

. . . .

آخر أيام رحلتهما كانت مليئة بأشعة الشمس. وبقي آلان مشغولاً ببعض الإصلاحات الضرورية، وساعدته نورما قدر استطاعتها. وفي صباح أحد الأيام، ظهر أمامهما الخط الأبيض للساحل البريطاني. واستخدم آلان جهاز الإرسال اليدوي لإرسال رسالة إلى والده، يبلّغه بأنه قادم باليخت إلى حوض شركة سان كلير في «بلايموث» وهكذا فجأة، وبطريقة أزعجت نورما، وصلت رحلتهما على اليخت الرمادي إلى نهايتها القريبة. واستندت إلى الحاجز الأمامي، بينما كانت «ميليسا» تمر بانتصار إلى داخل ميناء «بلايموث» وهي تشعر بمزيج معقد من السعادة والحزن، فكرة افتراقها عن آلان كانت تحطّم قلبها.. يجب أن تراه ثانية! النورس الذي كان يطوف بهما صائحاً، وكأنه ينادي بالوداع حتى أن عينيها امتلأتا بالدموع. وفي وسط الانشغال برسو اليخت وتسليمه لوالده، هل ستتمكن من أن تقول له بأنها تريد أن تراه ثانية؟ وتطلعت بحزن إلى الرصيف الذي يقترب منهما محاولة أن لا تبكي.

وبدا أمامهما حشد صغير عند الميناء. وما إن اقتربت «ميليسا» حتى صدر عن مئات الأشخاص صيحات الترحيب. وناداها آلان:

ـ لا تقفي هكذا، تعالي وساعديني في إنزال الأشرعة!

ـ من هؤلاء الناس؟

فحدّق قليلاً ثم قطّب:

ـ لست أدري.

وحدّق مرة أخرى فلاحظ سيارتين كبيرتين كتب عليهما «بي بي سي. الإرسال الخارجي» ونظرا إلى بعضيهما بحيرة. وما إن التصقت «ميليسا» بالرصيف، حتى رمى آلان حبل الربط إلى الشاطىء. وأسرعت الأيدي إلى التقاطه وربطه جيداً إلى اليابسة. بضعة أعضاء من الاتحاد البحري كانوا يلوّحون لهما من ضمن الحشد وهما ينزلان إلى البر. وصاح أحد مراسلي الصحف وهو يضعهما أمام كاميرا التلفزيون:

ـ أهلاً بك في بريطانيا سيد سان كلير. كيف تشعر لعودتك إلى بلدك؟

وحدّق آلان من حوله بعينين باردتين وسأل بحدة:

ـ ما هذا كله؟

وتقدمت نورما لتقف إلى جانبه بارتباك، وهي تشعر بأن الأرض غير ثابتة تحت قدميها بعد هذه الأيام التي قضتها في البحر.

وقال مراسل آخر، وقد وضع الميكرفون تحت أنفها:

ـ آنسة ليستر.. هل كنتِ خائفة خلال العاصفة؟

ـ أنا... وكيف عرفتم بأمر العاصفة؟

ونظرت بذهول إلى الميكرفونات وكاميرات التصوير وأنوارها التي تلمع. وتكلم شخص آخر، قائلاً بأنهما أبطال وطنيون، وأن الأمة كانت تتابع تقدمهم باهتمام بالغ...

وفجأة، تجاذبهما الجمع، يسألون، يطالبون، يسجّلون، يصورون. وأحسّت نورما بيدٍ قوية صغيرة تمسك بكوعها، وامرأة جذابة جميلة في الأربعينات تجذبها إلى جانب، وقالت لها بصوت محترف:

ـ أنا لوليتا باترسون، من الصنداي تايمز... لا تتكلمي مع أحد يا نورما.. ليس قبل أن تستمعي لشروطنا.

- شروطك لماذا؟

- عقد.. لقصتك بالطبع. خمسة مقالات، كل منها بألفي جنيه، ما رأيك؟ القصة ستكون بعنوان «كيف أنقذت حياة حبيبي من العاصفة» وليس عليك أن تكتبي كلمة منها. هل كان لديك كاميرا؟ هل التقطت أية صور؟ لا بأس، سوف نخترع بعض الصور في وقت قصير...

وجذبت نورما ذراعها من المراسلة، وعادت لتخترق الجموع باتجاه آلان، وبرز ميكروفون آخر تحت أنفها:

- هل كان لديك أية فكرة عن الاهتمام الذي تابع فيه البريطانيون أخباركما آنسة ليستر؟

- لا.. أبداً.

وحاولت الابتعاد، وشاهدت والد آلان يحاول الوصول إليه وسط حلقة من المراسلين، ووضع أحدهم نسخة من جريدة يومية بين يديها، ونظرت إليها بذهول: «العشاق الضائعون» وكان المقال يحتوي على صورتين: صورة لها بالبيكني، كيف حصلوا عليها بحق الله، والأخرى لآلان ينزل من الهليكوبتر... وتقول المقالة: «يخشى أن يكون العاشقان الهاربان، آلان سان كلير ونورما ليستر، قد ضاعا ليلة أمس بعد عاصفة قوية كانت تضرب أوروبا، وقطعت أي خبر عن مكان وجودهما»...

وتطلعت بالتاريخ.. إنه الأسبوع الماضي. ورمت الجريدة، وشاهدت عنوان جريدة أخرى: «العاشقان الهاربان يعودان اليوم بسلام».

ولوّحت امرأة جميلة متوسطة العمر، ليس بمايكرفون واحد أمامها، بل باثنين، وقالت:

- أرجوك قولي شيئاً لمشاهدينا.

وصاح مراسل شاب من خلفها:

- ما هو برج ميلادك يا نورما؟

وأجابت بارتباك وهي تنظر من حولها تبحث عن آلان:

- لا أريد أن أقول شيئاً.

وكان آلان يحاول تخليص نفسه من مجموعة مراسلي التلفزيون. ثم برزت من بين الجموع امرأة طويلة لها شعر كستنائي طويل، ورفعت النظارة لتكشف عن عينين زرقاوين.. وصاحت بصوت مثير:

- آلان.!

واستدار آلان، وعلى وجهه تعبير غريب. وسقطت يداه إلى جانبه وقال بهدوء:

- مرحباً جودي.

- آلان!

وأسرعت إليه، وأوقعت النظارة لتنكسر على الأرض. ورمت بذراعيها حول رقبته، وضمته بجنون.

وراقبتهما نورما وقد تجمدت. وشهقت: «آلان..» ولكنه لم يسمعها وصاح أحد المراسلين:

- استديري إلى هنا يا آنسة ويلفورد.

وبدأت الكاميرات تركّز عليهما بسرعة. ولمع نور كاميرا في وجه نورما من جديد، وكانت لوليتا باترسون إلى جانبها، وقد أمسكت بمعصمها وهمست وعيناها تلمعان.

- الوغدة الغادرة! أليس كل الرجال سواء؟ هذه جودي.. أتعرفينها يا نورما؟ لا تهتمي.. اسمعي! سنجعل المبلغ ألفين وخمسماية للمقال الواحد. إضافة إلى مقال آخر: «عودتي المريرة إلى الوطن» كي ننهي بها السلسلة، ما قولك؟ هذا سيقارب الثلاثين ألف جنيه بالمجموع النهائي. عدا عن حقوق الصور و...

ولم تكن نورما تصغي. فقد كانت عيناها مثبتتان على الاثنين الرائعين أمامها وهما يتعانقان أمام عدسات التصوير وكاميرات التلفزيون. وكأنهما جائعان لبعضهما بعد طول فراق. مبعثرين بهذا كل آمالها، وأحلامها، وحياتها.

.....

عندما بدأ جرس الهاتف يرن عند السادسة والنصف صباحاً في اليوم التالي، عادت نورما بذاكرتها إلى الوراء، بالكاد تذكرت رحلتها بالقطار إلى لندن، أو ما فعلته ليلة أمس. كل ما تذكره هو الألم الذي بدأ صباح الأمس، والذي كان يؤلم أكثر اليوم.

وخرجت متنكرة وهي تخفي وجهها بوشاح لتشتري عدة أغراض بينها العديد من الصحف، التي كانت منقسمة في ردة فعلها حول عودة اليخت. البعض منها التزم بالمقولة السابقة: «العاشقان الهاربان وصلا إلى الوطن أخيراً» وآخرون قالوا: «العاشقان في الميناء... فتاة آلان السابقة تظهر معه» ونشرت صور العناق، وإحداها نشرت صورة وجه نورما المذهولة وهي تنظر إلى جودي تعانق آلان.

في غياب أية قصة متماسكة، معظم الصحف لجأ لنشر الصور فقط. مع تعليق عن آلان «البلاي بوي» وامرأتيه.

ووضعتهما «التايمز» في الصفحة الأولى مع عنوان بسيط: «بريطانيان يعودان إلى الوطن بسلام»..

عند الظهر، سمعت قرعاً على بابها، وذهبت لتفتح دون حذر.

ـ أنا فرانك أدامس... من مجلة «الفتيات الشهيرات».. نرغب في أن نعقد معك عقداً لسلسلة مقالات آنسة ليستر...

وصفقت الباب بوجهه، وقررت أن لا تفتح لأحد بعد الآن.

وكان عليها أن تنتظر.. كما انتظرت الأنباء عن والدها خلال ذلك الأسبوع الرهيب، وبداخلها شعور بأنه رحل، ولن يعود، ولن يجده أحد.

وخرجت بعد الظهر لتتمشى في الحديقة العامة، خلال تجوالها مفكرة لمحت جوناثان، صديق قديم لها. وكان بائع جرائد، أبله بالمولد في أواخر الستين من عمره. عيناه دائماً تنظران إلى الدنيا بلطف، وفمه المفتوح دائماً، يبدو وكأنه يبتسم. وكانت نورما تفضّل الحديث معه، لأنه لا يضجرها أبداً. وسارت نحوه فحياها بضحكة واسعة فرحة، فابتسمت له:

ـ مرحباً جوناثان.

ـ لقد رأيتك في الجرائد يا آنسة. أنت والسيد ملاك الغيوم.

ـ صحيح يا جوناثان. أنا والسيد ملاك الغيوم.

ـ أنت أيضاً في الجرائد الليلة.

ولف جريدة وقدّمها لها.

ـ ثمانية عشر بنساً.

فابتسمت وأعطته جنيهاً.

ـ خذ الباقي لك يا جون، لأنك الوحيد في بريطانيا الذي استقبلني بابتسامة.

ـ اقرأي كل شيء... سوف تسرين بها!

وأخذت الجريدة منه وفتحتها، وشاهدت الصورة التي أصبحت مألوفة لها الآن: صورة العناق، وتقول العناوين: «جودي ويلفورد ستتزوج آلان سان كلير» وتراقصت الكلمات أمام عينيها وهي تقرأ ما قالته جودي المثيرة: «لقد حاولت الابتعاد عنه، ولكنني لم أستطع. إنه أعظم رجل في العالم، وأنا أحبه كثيراً».

«جودي، التي هي الآن تحاول الطلاق منذ ستة أشهر من بيتر فولروك، رئيس مجلس إدارة شركة «تمبل للتصميم الجوي» المتوسط العمر. وهي تشق طريقها الآن في عالم التمثيل في أحد الأفلام...».

وقال جوناثان:

ـ أليست أخباراً جيدة يا آنسة.

وامتلأت عيناه بالدموع استجابة لدموعها، ورمت الجريدة، ثم عادت إلى منزلها، غير عابئة بجوناثان أو بالناس الذين توقفوا ليحدقوا بدموعها.

حسناً، لقد جاء الرد على السؤال القديم الذي طرحه آلان بنفسه: «هل سأعود راكضاً إليها لو دعتني؟ هذا سؤال لم أجد الرد عليه بعد يا نورما!».

كان هناك سيارة جاغوار مألوفة أمام منزلها، وما إن وصلت حتى فُتح

الباب وخرج رالف كلارك:

- نورما حبيبتي. . . ! هل كنتِ تبكين؟

- كيف تجرؤ على مناداتي بحبيبتك؟ ماذا تريد؟

- كنت أحاول الاتصال بك طوال النهار، ويبدو أن جميع أهل لندن عندهم نفس الفكرة. اسمعي نورما، لندخل إلى المنزل. . . وسأصنع لك فنجان شاي إذا رغبتِ. . أوكي؟

- أوكي. .

وأحسّت فجأة بالسعادة لوجود من تتكلم معه، حتى ولو كان رالف كلارك، وجلست لوحدها، بينما ذهب رالف إلى المطبخ. وأراحها الشاي الساخن. ونظرت إلى رالف من فوق فنجانها:

- ماذا أتى بك إلى هنا يا رالف؟ أعتقد أن كل ما بيننا قد انتهى. . .

- انظري، نورما. . . إننا حقاً لم نكن ملائمان معاً. . . أليس كذلك؟

- لا. . . أعتقد هذا.

- انظري. . لقد عاملتك بطريقة شريرة وسيئة. . . وأنا. . أنا آسف يا نورما.

- لا يهم. . لقد انتهى كل شيء.

- وهل انتهى كل شيء؟ أخبريني. . . هذا. . . آلان سان كلير. . . هل يعني لك شيئاً؟

وحدقت به، محاولة إيجاد طريقة لتخبره بها، وكلمات لتصف له شعورها عن الرجل الذي أرادت أن تتزوجه، وأرادت أن تنجب أطفاله. . . وقال بهدوء:

- لا بأس. . أستطيع قراءة الرد في وجهك. . اسمعي. . . كل هذه الضجة في الصحف كانت غلطتي. . كما أخشى.

- غلطتك؟ وكيف؟

- حول جودي فولروك.

- وكيف عرفتها؟

- إنها شهيرة جداً. وأصبحت صديقاً لها، لقد شدتني إليها. . .

- أتجمع بين جولي وجودي؟

- لست أبلهاً لأكتفي بجودي فولروك لمدة طويلة.

- ولكنك أخبرتها عني وعن آلان؟ وهي أخبرت الصحف؟

- الأمر كله بسبب فيلمها الجديد. يبدو أنها كانت تتوق لتحقيق هذا الحلم منذ زمن بعيد. وأخيراً أقنعت غبياً بدفع المال، وأقحمت نفسها كبطلة، والفيلم يُصور منذ أشهر. واحتاجت لبعض الدعاية للترويج للفيلم اللعين. على كل جو الفيلم يرتكز على البطل والبطلة وهما معزولان على متن يخت في وسط جنوب الأطلسي. . . أجل. . . وهذا كان قريباً مما حدث لك ولآلان على متن «ميليسا».

- أتعني. . . ؟

- لديها الكثير من المعارف في الوسط الصحفي، بما يكفي لأن تبقي قصة «ميليسا» في عناوين الأخبار الأولى لأيام. وللتأكد من أن وصولكما سيكون محور الاهتمام لكل صحيفة وشركة تلفزيون في البلاد.

- ولكن. . لماذا؟

- فكري بكل هذه الدعاية المجانية يا نورما. وبالتغطية الإعلامية في كل البلاد. كلها دعاية مجانية للفيلم. سيعني هذا لها الملايين عند شباك التذاكر.

وتجمدت في كرسيها وقالت ببطء:

- لقد قرأت مقالة لتوي. تقول فيها إنها وآلان سوف يتزوجان.

وهز رالف رأسه.

- وهذا أيضاً جزء من المشروع الإعلاني يا فتاتي. . ولست أدري إذا كانت تنوي المضي بمشروع الزواج هذا أم لا. وعلى الأرجح ستتخلى عن كل شيء، وعن آلان، عندما تحسّ بأنها قطفت أفضل الثمار من هذه المسألة. . . لا تجعلي الأسى يسيطر عليك هكذا. سوف تستعيدينه في النهاية.

ـ آلان يحبها. ولهذا استطاعت أن تعمي بصيرته هكذا يا رالف.

ـ أوه.. هل الأمر سيىء إلى هذه الدرجة؟

ـ الأمركان سيئاً من أيام كان في «سيرنجيتي» يا رالف، وربما قبل ذلك بكثير. يا إلهي.. أشعر بالبؤس.

ـ تماسكي... لن يدوم الأمر، وأنت تعرفين، لقد قفزت جودي إلى طريقكما لتستفيد.. وربما.. ربما سيعود يوماً إليك..

ـ ما إن تنتهي منه؟ لا.. لست لقمة سائغة لهذه الدرجة يا رالف.

ـ لن يكون الأمر سهلاً يا نورما.

ـ أوه.. بل سيكون، فأنا لا أهتم بما تتركه باقي النساء يا رالف، فلدي كبريائي، وإذا كان آلان قد عاد إلى جودي.. كائناً ما كان اسمها، فليبقى هناك معها!

وصاح بها قلبها.. كاذبة... كاذبة...

ونظر إليها رالف، وقال وكله أمل:

ـ بإمكاننا الزواج في أي وقت، أو على الأقل لنمنح بعضنا فرصة أخرى. ما رأيك؟ لنخرج الليلة معاً، كما في الأيام الماضية!

ـ الأيام ليست ماضية لهذه الدرجة.

ـ نورما.. انظري.. كنت خنزيراً قذراً معك. وأعلم هذا. وعندما قلتِ لي بأنني خططت لأخبرك عن جولي، كنتِ على صواب. ولسبب مجنون كنت يائساً كي أتركك.

ـ ولكن جودي فولروك ليست ذلك السبب المجنون.

ـ لم يكن الأمر هكذا فقط يا نورما، كنت مشوش الفكر، ولم أكن أدري ما أريد، بعد أن...

ـ بعد أن تخلصت مني؟

ـ بعد أن افترقنا على الهاتف، ظننت أنني فعلت ما هو مناسب، ولكن الآن...

ـ بدأت تغير رأيك؟

ـ حسناً.. أنت الآن مختلفة بعض الشيء. بشرتك أصبحت بلون جميل. وشعرك، إنه يناسبك جداً بهذا الطول، لست أدري أين قصصتيه، ولكنه جميل.. وجسدك يا نورما.. وكأنك من حوريات هوليوود!

ـ هذا إطراء جيد.. انظر يا رالف.. لوني الأسمر سيزول، وجمال جسدي كذلك.. وعاجلاً أم آجلاً سيطول شعري. ولا يمكنك أن تقيم علاقة على مجرد المظهر الخارجي للناس. يجب أن يكون هناك أكثر...

ـ ولكن هناك أكثر. لقد كنت أفكر مؤخراً يا نورما، ولقد تحسنت شخصيتي كثيراً.. صدقاً! فلنحاول من جديد... ما قولك؟

وتفحصته، مقارنة إياه بآلان، بقوته، بحيويته، وصدقه، وروحيته.

وقالت بلطف:

ـ لا أظن هذا يا رالف.. ولكن شكراً لعرضك هذا على كل الأحوال.

ـ أرجوك يا نورما. لنذهب ونركب الخيل، عبر السهول، كما كنا نفعل، لمرة واحدة؟

ـ الأفضل لا..

وتنهد رالف والحزن على وجهه:

ـ أعتقد أنني أستحق كل هذا. لقد كنت غبياً. وأعتقد أنني أستحق العقاب...

ـ أنا لا أحاول معاقبتك يا رالف. بكل بساطة، لا أرغب في بدء أي شيء جديد معك... أو مع أي إنسان آخر.

ـ أنت تحبين آلان هذا فعلاً. أليس كذلك؟

ـ لا تسألني هذا السؤال ثانية يا رالف.. فأنت تعرف الرد.

ـ أعتقد أن هذا طبيعي.. يبدو أنه شاب ممتاز.. لقد سمعت بعض المعلومات عنه من جودي.. إنه الأفضل في كل شيء.. على ما يبدو..

وأجابته بحدة، وهي تقف:

ـ لا أريد أن أعرف.

ووقف رالف، وزرر سترته:

ـ أنا آسف، أتمنى لو أستطيع أن أفعل شيئاً لمساعدتك. ربما أذهب إلى آلان لأقول له...

ـ أرجوك.. لأجل الله.. لا تفعل هذا... أتعلم يا رالف.. سوف تحطم قلبه مرة أخرى.. عندما يكتشف أنها تستغله من أجل مستقبلها الفني... سوف يحطم هذا قلبه..

ـ ولماذا لا تقولين له؟ اكتبي له، اتصلي به، أخبريه كل شيء عن جودي قولي له ما قلته لك...

ـ قلت لك يا رالف. لديّ كبريائي. ولن أعود إلى آلان ولو عاد إليّ جاثياً على ركبتيه... فلتحطم قلبه، إذا كان غبياً لدرجة أن يتركها تفعل. وهذا لن يزعج نومي.

وصاح بها قلبها.. كاذبة... كاذبة.. كاذبة.

....

ولكن غضبها استمر... وأصبحت غاضبة أكثر عندما لم يتصل بها. وامتد هذا يومين، ثم ثلاثة وأربعة وخمسة. وانطفأ الأمل فيها ببطء. وفي أعماق نفسها كان صوت يقول: «إنها غلطة بشعة.. وسوف يعود» ولكن الصوت بدأ يخفت، ثم مات.

وذهبت في مهمة عمل لثلاثة أيام، أمضتها في منزل ريفي يملكه رجل يدعى دونكان، كان يعتقد أن اللوحات على جدران منزله لوحات أصلية، وأمضت الساعات في إصلاح المجموعة، لتكتشف مجموعة غير معروفة من الكلاب غير المتجانسة وبعض طيور الحجل، وأسلاف قدامى بشعين بشكل لا يصدق، وأطفال كئيبي المنظر، وأواني مليئة بالفاكهة غير الصالحة للأكل.

وتنهد السيد دونكان وهو يوقع لها الشيك بأتعابها وقال:

ـ كنت أفضّل أن تبقى كما كانت.

وعادت نورما إلى لندن.

أنباء عدم ارتباطها مع رالف كلارك، وافتراقها عن آلان سان كلير، جلب لها العديد من المكالمات الهاتفية المتكررة من أصدقاء قدامى لها على أمل مصادقتها من جديد، واستاءت قليلاً عندما اكتشفت أن العاطفة المشكوك بها قد تحركت في صدور عدة معارف لها من الرجال. ولكنها كانت ترفض باستمرار وإصرار دعواتهم، إلى أن حذّرتها صديقة لها:

ـ الأفضل لك أن تنسيه يا نورما. احرصي قليلاً. اخرجي وقابلي الناس. وانفضي غبار ذكراه عنك.

وقررت أن تقبل الدعوة التالية، وكانت من شاب صيني جذاب يدعى شونغ بول. كان ساحراً، مهذباً، مسلياً، مثيراً، ولكنه لم يكن آلان سان كلير.

وفي نفس الوقت، كانت تبقي عينيها على الجرائد، منتظرة أي نبأ عن آلان وجودي.. ألا تستطيع الاعتراف بينها وبين نفسها بأنها تنتظر أن تسمع أخبار انفصالهما. ولكنها لم تقرأ مثل هذا النبأ.

ووصلتها طلبات لمهمات جديدة. وأخذت تدرسها عند الإفطار، ولكنها لم ترد على أي منها.

في مانشستر، دخل تلميذ فنون مخبول إلى معرض وثقب إحدى اللوحات الفنية الحديثة. واتصل مدير المعرض بنورما فقالت له بتوتر:

ـ أجل.. أظن أن بإمكاني أن أصلّحها. سوف أحضر إلى عندك، لنقل.. يوم الخميس؟.. من دواعي سروري.. أجل.. شكراً لك.. وداعاً.

ووقفت قرب الهاتف، ومررت يدها عبر شعرها الأشقر، الذي بدأ يعود تدريجياً إلى طبيعته، وأحسّت بشيء ثقيل يهبط إلى معصمها وهي تنزل يدها، وكان السوار الفضي الذي وجداه في ركام القصر الأندلسي في تلك الجزيرة في البحر الأحمر. ونظرت إليه... وضاعت في ذكرى دافئة مهتزة... ورن جرس الهاتف.. فأجفلت.. ورن الجرس ثانية...

فالتقطته.. وكان آلان.

●●●

٩ ـ حلم له أجنحة

ـ نورما؟

ـ أهلاً.. آلان.

وجف فمها فجأة، فجلست، وقد أحست بضعف ساقيها.

ـ أنا آسف لأنني لم أتصل بك منذ فترة طويلة.. ولكنني...

ـ أوه.. أنا أفهم تماماً.. فلديك سمكة أخرى تصطادها الآن.. أليس كذلك؟

ـ تبدين وكأنك بطلة إحدى الروايات المأساوية.

ـ صحيح؟ يجب أن تكون خبيراً يا آلان بالمآسي.

ـ اسمعي نورما.. أنت وأنا سنخرج الليلة معاً.

ـ أوه وهل سنخرج حقاً؟ حسناً، عليك أن تفكّر بالأمر ثانية يا آلان! فأنا مشغولة جداً.

ـ لست مشغولة كثيراً لما سأقوله لك.

ـ لديك أعصاب باردة يا آلان! لقد رميت بي كما ترمى البطاطا الساخنة بعد لمسها... لم أسمع منك شيئاً لأسابيع ثم...

ـ إنه أسبوع واحد.

ـ ولديك الجرأة بعدها لأن تتصل بي وتأمرني بالخروج معك! من

www.elromancia.com

تعتقد نفسك؟

ـ هيا يا نورما، خففي من كبريائك.

ـ ولماذا هذا الاهتمام المفاجىء بالمسكينة الصغيرة نورما ليستر؟ هل انتهت منك جودي.

وساد بينهما صمت متوتر.. وقال آلان بصبر ظاهر:

ـ اسمعي نورما.. أعلم أنك تألمتِ وتكدرتِ.. ولكن..

ـ تألمت؟ لم أتألم على يدك يا آلان، أنت مغرور بنفسك لو ظننت أن أي شيء تفعله أنت قد يؤلمني!

ـ لم أتوقع أن تكوني غاضبة لهذه الدرجة.

ـ إذاً، أنت لا تعرف شيئاً عن النساء. ليس بقدر ما تظنه بنفسك. أو، ربما تغيرت النساء منذ كنت شاباً!

ـ نورما!

ـ عد إلى جودي يا آلان، أم أنها لا زالت تدعو نفسها باسم زوجها تمبل؟

ـ لست أدري بماذا تدعو نفسها.. ولست أهتم.. نورما...

ـ أنت كبير السن بالنسبة لي يا آلان. لقد قلت هذا بنفسك، ألم تفعل؟ أنت كبير وقاس، ومتشكك، مع أنني أعترف أن تقديري لقسوتك قد انخفض كثيراً منذ آخر مرة رأيتك فيها... وأنت تعانق جودي اللعينة أمام عشرين مليون مشاهد!

ـ كان هناك العديد من المرات خلال رحلتنا كنت فيها على وشك وضعك فوق ركبتي لأضربك وأؤدبك.. وأنا نادم لأنني لم أفعل.. ولكنني أعدك.. أيتها السيدة الشابة.. إذا تكلمتِ معي بهذه اللهجة ثانية، فسوف تندمين كثيراً وبمرارة!

ـ دعني وشأني يا آلان. أنا لست مهتمة بك.

وقال بصوت ثابت:

ـ ولكنني مهتم بك يا نورما.

ـ فعلاً؟ حسناً.. أنا ليس عندي الرغبة في من علكته جودي ثم بصقته يا آلان...

ـ نورما... سوف أحضر لآخذك عند السادسة والنصف مساءً. من منزلك. هل فهمتِ؟

ـ لا تحاول أن تأمرني يا آلان. أنا لستِ...

ـ في السادسة والنصف نورما.

ـ وإذا قررت أن لا أكون موجودة؟

ـ سأبحث عنك إذاً.. وبالمناسبة.. ارتدي ثياب سهرة.

ـ لن أكون موجودة في المنزل. أنا...

وأقفل الخط في أذنها، وضربت السماعة مكانها بغضب وصاحت: «ليتني أكسر الآن شيئاً، أحتاج لشيء أكسره!» وخرجت كالعاصفة من منزلها، إلى حديقتها الصغيرة، ثم باتجاه المنتزه... الخنزير المتعجرف! إذا كان يظن أنها ستركض إليه عندما يصفّر لها، إذاً فهو مخطىء، مخطىء كثيراً! ماذا يظنها؟ واهتز السوار في معصمها، فنظرت إليه، سوار فضي غليظ يلف حول معصمها الرقيق. وبغضب مفاجىء انتزعته ورمته إلى أبعد ما تستطيع في دغلة قريبة. وعلى الفور ندمت على عملها، والتوى قلبها بالألم بعدما ارتطم السوار اللماع بالعشب. وعضت شفتها، واستدارت على عقبيها وانصرفت، مردّدة لنفسها بأنها سعيدة، سعيدة، سعيدة، وتتساءل أين يمكن لها أن تختبىء الليلة لتتهرب من آلان سان كلير..

كان جوناثان، بائع الجرائد، يقف عند طرف المنتزه، يمسك برزمة الجرائد تحت إبطه. والتفت إليها وهي تتقدم نحوه.

ـ لقد كنت أنتظرك يا آنسة.

ـ صحيح يا جوناثان؟.. لماذا؟

ـ أنا آسف لإعطائك تلك الجريدة يا آنسة. لم أكن أعلم أنها ستدفعك إلى البكاء. أنا حقاً آسف يا آنسة.. صدقاً!

ـ أوه يا جون، أنا لم أقصد أن أزعجك ببكائي الغبي. كنت تعبة تلك الليلة.

ـ تعبة؟ هل كنتِ في أفريقيا يا آنسة؟ وهل رأيتِ النمور يا آنسة؟

ـ آوه.. أجل.. كانت مخططة ولها عيون خضراء. ولها أسنان بهذا الحجم...

ورسمت شكلاً في الهواء بأصبعها ففغر جوناثان فمه بدهشة غبية.

وأكملت طريقها نحو منزلها الصغير، وقد بدأت تحسّ بالهدوء. وقررت أن لا تخرج مع آلان، لا الليلة ولا في أي وقت آخر، فقد بدأت لتوها تتغلب على مشاعرها نحوه، وهي بكل بساطة لن تكون في المنزل عندما يصل.

وتذكرت أن اليزابيت مانسفيلد ستأتي لزيارتها وتتناول الشاي بعد الظهر. وستقضي الليل عندها، وسرّت لتذكرها زيارة ليز. وخرجت من المنتزه ودخلت محل حلوى واشترت بعض الحلوى بالمربى.

وصلت ليز عند الثالثة، نورما كانت دائماً مولعة بصديقتها وصداقتهما كانت تعود إلى أيام الدراسة، وأخبرتها نورما بالقصة كاملة، وأخذت ليز تنظر إليها متفهمة. وعندما انتهت نورما قالت لها مفكرة:

ـ هكذا.. ماذا ستفعلين الآن؟

ـ كنت أرجو أن نقضي الليل معاً في شقتك يا ليز. أنا لا أريد أن أكون هنا عندما يصل.

ـ ولماذا لا؟ أنت تحبينه، أليس كذلك؟

السؤال المباشر فاجأ نورما، فرمشت عينيها باضطراب:

ـ لا.. لا أحبه!

ـ بل تحبينه. أنت لم تحبي رالف يا نورما، كنت دائماً أعرف هذا. ولكن مع هذا الرجل الأمر مختلف، أستطيع رؤية هذا على وجهك، في نظراتك، في كل شيء تفعلينه، اذهبي واشتري ثوباً جميلاً، سآتي معك لأساعدك في اختيارك.

ـ ماذا؟ هل أقبل به ثانية، بعد أن كان يعاشر تلك.. تلك المخلوقة!

ـ إنها ليست مسألة قبول به ثانية. فأنت لم تكوني تمتلكينه أصلاً. أليس كذلك؟

وترددت نورما، فأكملت ليز:

ـ أعني أنكما لم تكونا عاشقان، أليس كذلك؟ وإذا كان لديه شيء لم ينته بعد مع هذه الجودي، فهذا ليس من شأنك.

ـ ولكن...

ـ أين رميتِ السوار الذي أعطاه لك؟

ـ هناك.

وأشارت نورما إلى الدغل الذي كان بادياً من حديقتها.

ـ يبدو الدغل شائكاً، هل لديك قفازات واقية؟

ـ أليزابيت! لن أذهب لأبحث عنه، ولن أخرج مع آلان، الليلة، مجرد التفكير بالجلوس معه في نفس السيارة...

ـ ماذا؟ هل تثيرك الفكرة؟ لنخرج ونجد ذلك السوار، ثم لنخرج لنتصرف بعضاً من مالك على ثوب طويل حريري ومثير.

ـ أنت لا تصغين إليّ يا ليز. أنا أكره آلان! ولا أريد رؤيته ثانية!

ـ وهل تعنين هذا؟

ـ بالطبع.

ـ إذاً قوليه له.

ـ ماذا؟

وابتسمت ليز، والتقطت آخر قطعة حلوى في الطبق.

ـ قلت لك.. قولي له هذا بنفسك، وجهاً لوجه. وليكن لديك بعض الكرامة. نورما، لأجل السماء.. لا يمكن لك أن تجبني وتهربي بينما هذا الرجل يركض خلفك. إنها أجبن طريقة للهرب.

ـ ولكن...

ـ من دون ولكن.. هل أنت امرأة أم فأر؟

www.elromancia.com

ـ ليز.. أنا...

ـ لا تستطيعين التهرب الآن يا نورما، ولو اختبأتِ منه فلن تعرفي حقيقة مشاعرك نحوه أبداً، صدقيني. ولماذا، فأنا لم أسمع قصة مثيرة كهذه أبداً. التقيتِ به وأنتِ تتجولين بين الأسود والفيلة، وقصصت شعرك لتتسللي إلى مركبه، ومررتما معاً عبر عاصفة هائلة.. والآن تريدين أن تهربي وتختبئي عندما يجيء إليك ليخرج معك!

وحدقت بها نورما مفكرة، وتابعت صديقتها:

ـ استمعي إليّ يا نورما.. إذا أردتِ نسيان آلان سان كلير، فعليك أن تقابليه للمرة الأخيرة، مرتدية أجمل الفساتين، لتظهري له كم أن جمالك باهر! اجعليه يشعر بالدوار، قفي في وجهه، ثم تخلي عنه، إذا أردتِ هذا.

ـ ولكن.. ولكن يا ليز.. أنا.. أنا لا أثق...

ـ لا تثقين بمن؟ أنت لا تثقين بنفسك..

ـ أنت تجعلينني أرتبك يا ليز.

ـ أنت من تربكيني. هل أنت نفس نورما ليستر التي تسلقت شجرة التفاح معي لتنزل قطتنا عنها؟ والتي ضربت أنف «قبضاي» المدرسة؟

ووقفت اليزابيت بكامل طولها الذي يبلغ أربعة أقدام وأحد عشر إنشاً فقط. وجذبت تنورتها إلى الأسفل وقالت:

ـ هيا بنا نخرج لنفتش عن تلك الاسوارة.

. . . .

عند السادسة والنصف، كانت نورما لا تزال تجلس أمام المرآة، وكانت قد اختارت الثوب الأكثر إثارة، والأغلى ثمناً، في البوتيك. وحدقت بالحرير الليلكي اللماع فوق كتفيها الذهبيتين. هل هو مكشوف كثيراً؟ فهو يكشف الكثير من جمالها بدل أن يخفيه. لم تكن تحلم في حياتها أن ترتدي مثل هذا الثوب. وعلّقت ليز على ذلك قائلة:

ـ لو أنك تريدين أن تجعلي لسانه يتدلى، فعليكِ أن تذهبي إلى آخر

الطريق.

ونظرت إلى ساعتها، تقريباً السادسة والنصف. ليس من عادة آلان أن يتأخر، وهي تعرف هذا، من الأفضل أن تقفل الشقة وتنتظره عند المدخل.

وسمعت هدير محرك عن بعد، اقترب بسرعة منها، فالتفتت لتنظر إلى الخارج، وشهقت. كان هناك هليوكوبتر قرمزية اللون تهبط عند المنتزه، والهواء المنبعث من محركاتها يهز العشب بقوة. ثم أبطأت شفرات المروحة بالتدريج إلى أن توقفت، وفتح باب القيادة، ونزل منها رجل بثياب السهرة وسار نحو المنزل.. آلان... وقبل أن تستطيع منع نفسها، برزت ابتسامة فرح على شفتيها.. آلان! آلان وحده من يفكر بالوصول إليها بهذه الطريقة! وضحكت نورما وركضت إلى الدرج لتلتقيه، ثم توقفت، وتفحصت نفسها في المرآة الصغيرة في الردهة. واستقبلته بعينين باردتين وهي تفتح الباب.

ـ مرحباً نورما..

وأجفلت.. إنه رائع! لقد اعتادت أن تراه بالشورت، وصدره عار وأسمر. ولكن أن تراه الآن، فاتن بشكل لا يصدق، وتبدو عليه مظاهر الحنكة، فهذا ما صدمها. وقال لها:

ـ أنت أجمل من أي وقت أستطيع تذكره.

ـ مساء الخير سيد سان كلير.

ومدّت يدها له، والقفاز عليها. وأخذ ذراعها بكل لطف، وتوجه بها نحو الهليوكوبتر.

ـ هل ستتابع هكذا؟ هل ستناديني بالسيد سان كلير؟ إذاً الأفضل أن أناديك بالآنسة ليستر.

كان جيرانها في المنطقة قد تجمعوا ليشاهدوا بذهول الظاهرة التي حطّت في جوارهم، وسار بها آلان إلى الآلة الغريبة وكأنها أمر طبيعي، متجاهلاً الوجوه المذهولة، وأخذ الأطفال يهللون ويقفزون في حدائق

منازلهم.

ومدّ لها يده السمراء القوية ليرفعها إلى المدخل الأسود للهليوكوبتر. كيف يمكن لأحد أن يساعد سيدة في الصعود إلى هليوكوبتر وكأنه أحد اللوردات يساعد ليدي على الصعود إلى عربة تجرها الخيول؟ وكان المقعد مريحاً بشكل جميل. وبينما كان يربط لها حزام الأمان حول خصرها النحيل قال:

ـ ألا يذكرك هذا بحزام الأمان على متن «ميليسا»؟

ـ لا.. لا يذكرني بشيء.

ـ هل طرتِ في واحدة مثل هذه من قبل؟

ـ لا.. إنها تبدو لي مزعجة وخطرة.

ـ ولكن هذه ليست كذلك.

وأدار المحركات، فبدأت شفرات المحرك تصدر الصوت المألوف للهليوكوبتر. وأغلق آلان باب القيادة، واختفى الصوت تماماً.

ـ اختاري شريطاً مسجلاً..

ومالت إلى الأمام لتخفي مدى تأثرها، واختارت شريطاً وضعته في المسجلة الجميلة، وبدأت أنغام موزارت على البيانو تملأ المكان. ونظرت عبر النافذة إلى الخارج، إلى السماء الخالية من الغيوم كم من الغريب أن تفكر بأنها سوف تصبح هناك في الأعالي تسبح في الهواء وكأنها الطير.

وانطلق آلان مرتفعاً بالطائرة، وهو يلوح لجيران نورما. وأحسّت وكأن الأرض انزلقت من تحت قدميها، فأمسكت بالمقعد بقوة وشهقت قائلة:

ـ آلان.. أظن أن هذا لن يعجبني!

ـ ظننت أنني السيد سان كلير.. أنا أكيد بأنك ستحبين الطيران.

وأصبح قلبها عند حلقها وهي تتحسس الحزام الذي يثبتها بمقعدها. وابتسم آلان بهدوء وقال:

ـ انظري...

وأشار إلى أمامهما، فتطلعت، وزال عنها كل الخوف. لندن بأكملها من تحتها، مدينة رائعة ساحرة تحت أشعة شمس بعد الظهر، ورأت نهر التايمز يشق طريقه على طول المدينة، شريط عريض أزرق يمتد حتى الأفق البعيد، نحو البحر البعيد. كانت لندن، الأعظم بين المدن، تمتد تحتها. كان الأمر كالحلم، حلم طفولة له أجنحة.

ونظرت إلى آلان. كان يبتسم لنفسه. يداه على المقود ثابتتان واثقتان، يسيطر على الآلة بقوة الخبير. وقال لها:

ـ ألم أقل لك إنك ستحبين الطيران.

ـ الأمر رائع. مثل الحلم..

ـ هناك حديقة هايدبارك.

ـ أنا مندهشة لسماح جودي لك بالخروج الليلة.

فضحك آلان.. وبدت ساحة ترافلغار تحتهما. وفيها المعرض الكبير، والأعمدة المرتفعة في الوسط. سطوح المدينة كانت جميلة بشكل لا يصدق. ومرا فوق الحدائق الرمادية للبركان. وطارا بسرعة فوق النهر. السفن فوق مياهه تبدو بقعاً سوداء فوق صفحته اللامعة. كم من الوجوه يا ترى تلتفت الآن لتنظر إليهما؟ وهل يمكن أن تجد هذه المدينة الصاخبة لحظة للنظر إليهما؟

ـ هل أحببتِ لعبتي؟

ـ إنها لعبة للأولاد الأثرياء المدلّلين.

ـ ليس صحيحاً. يمكنك شراء واحدة مثلها بثمن أقل من ثمن رولزرويس.

ـ هل هي إحدى تصميماتك؟

ـ كل عقدة وبرغي فيها من تصميمي.

ـ لقد بدأت أفهم سبب تفضيلك الطيران فوق الماء، لم أشاهد شيئاً بهذا الجمال في حياتي يا آلان.

ـ أنت تستحقين معاملة خاصة، لصبرك عليّ.

ـ بينما أنت تلتهي مع . . ملكة الإثارة؟ أرجو أن لا تظن أنني . . .

ـ هس . . لتترك هذا إلى ما بعد. أيتها الطاهرة الصغيرة. هناك أشياء عديدة في هذا العالم يجب عليك أن تفهميها بعد.

وبدأت الضواحي المزدحمة تختفي لتظهر مساحات أكبر من الخضرة، والحقول، والريف الواسع. والتفتت إلى آلان متعجبة:

ـ أين نحن ذاهبان؟

ـ إلى «مكسيم».

ـ مكسيم؟ في باريس؟

ـ بالطبع . . لقد حجزت طاولة هناك عند الثامنة. وسوف نصل في الوقت المناسب.

ـ آلان! . .

ـ على فكرة، إننا الآن فوق «كرايدون» هل تتمتعين بالرحلة؟

ونظرت إليه وقد أدهشها هدوءه:

ـ ولكن . . باريس! آلان . . ليس معي جواز سفر!

ـ لا أظن أن أحداً سيطلبه منك عند «مكسيم».

ـ ولكن هذا سيكلفك ثروة، ألم يكن بإمكانك أن تأخذني إلى مكان في لندن؟

ـ سوف يكون أمامنا وقت للاقتصاد فيما بعد. بعد الزواج.

ـ بعد زواج من؟

ولفّت معطف الفرو جيداً حولها، فتجاهلها، ونظر إلى مقبض القيادة فوق رأسه. وقال:

ـ سوف أزيد سرعتنا قليلاً، «تونبريدج وايلز» قريبة منا، هل تريدين أن تريها؟

وبدت «كنت» أمامهما، حقول لا نهاية لها من الخضرة، والحقول البنية والصفراء، يتخللها بيوت صغيرة، وقطعان من الأبقار والخيول، وسواقي صغيرة تلمع تحت شمس المساء، وجلست نورما في مقعدها

لاهثة الأنفاس. لقد كانت تنوي أن تكون باردة، قاسية مع آلان! ولكن كيف لها أن تحلم بهذا!

مهما حدث لها الليلة، ومهما توصلت مع آلان، فقد كانت تعلم بأنها لن تنسى هذا أبداً، ولن تنسى آلان سان كلير. . . وتسارعت الحقول تحتهما، وبدأت العتمة تحل مكان الزرقة، وبدأت النجوم تظهر واحدة واحدة من حولهما.

وفجأة مرا فوق المرتفعات الصخرية بين «هايستنغز» و «دنكنز» وأصبح المانش تحتهما. صفحة رمادية، تغطيها تحركات الموج البيضاء. وسألته:

ـ هل انتهى إصلاح «ميليسا»؟

فهزّ رأسه بالإيجاب.

ـ لقد اشتراها إيفنز في النهاية، وسيبدأ السباق عبر الأطلسي خلال شهر، وهناك حظ كبير له في أن يربح السباق بها. وهذا سيكون أكبر دافع لشهرة والدي.

ـ وهل حصلت على أي تعويض عن الأضرار من بيتر؟

ـ لم أهتم بالأمر . . . انظري ها هي فرنسا.

وأشار إلى الأفق أمامهما.

ـ لا بد أننا نطير بسرعة الريح.

ـ يمكن للهليوكوبتر أن تكون خادعة. فنحن نطير بسرعة تماثل سرعة النفاثة، ونحن نتبع طريقاً مختصراً. وأخشى بأننا سنصل باكراً جداً. ولكن، لا أظن أن «مكسيم» سيعارض. أتظنين هذا؟

ونظر إليها بعينيه الرماديتين الساخرتين، والشمس الغاربة تضيء وجهه، وتابع:

ـ إنها مسافة طويلة للذهاب للعشاء. ولكن علينا أن نعترف أن الإنكليز لديهم نقاط ضعف، والطعام هو نقطة الضعف الرئيسية!

وابتعدت الهليوكوبتر من فوق شوارع باريس المتألقة، وتوقفت

كالفراشة الرائعة فوق سطح «كرايزلر سنتر» وما إن استقر آلان بالآلة فوق الدائرة المخصصة للهبوط على السطح، حتى فركت نورما عينيها خلسة للتأكد من أنها لا تحلم. أمامهما مباشرة يتعالى برج إيفل في سماء باريس. ووصلت إليهما رائحة باريس التي لا يمكن لأحد أن يخطئها. مزيج من رائحة الشوكولا، والوقود، وعطر ملايين النباتات والأزهار. وساعدها الحرس بثيابهم الرسمية مع ابتسامة، وشعرت بالدوار. وأمسك آلان بذراعها، وكأنه فهم ما بها. وقال لها مبتسماً:

ـ سوف ترتاحين عند تناولك أفضل كوكتيل في العالم في باريس بعد لحظات.

وسارع رئيس الخدم لا ستقبالهما عند مدخل المطعم الشهير، وحيا آلان وكأنه صديق قديم، وتحدثا بالفرنسية بسرعة لم تستطع نورما أن تفهمها. وتمسكت بذراع آلان وهما يسيران عبر المدخل المغطى بالستائر المخملية، واستقبلتهما باقة ورود كبيرة. كانت الفرقة الموسيقية تعزف ألحان الجاز الناعمة «البلوز» للعشرات من الراقصين في قاعة الرقص الضخمة. وهمست:

ـ آلان.. هذا رائع!

ـ أجل.. ولكننا سنجلس الليلة في زاوية خاصة.. أليس كذلك يا جان؟

ـ أجل مسيو سان كلير.. الغرفة جاهزة.

ورافقهما الساقي نحو باب خشبي كبير. كانت الغرفة المستطيلة تحتوي على أجمل الثريات التي رأتها نورما في حياتها، وكأنها نافورة ثلجية من الكريستال المذهل الجمال يلتمع بوحشية تحت الأنوار. في الطرف البعيد للغرفة، إلى جانب صف عريض من الورود والزنبق كان هناك طاولة بيضاوية محضرة لاثنين. وما تبقى من الغرفة مفروش على طراز القرن الثامن عشر، مع مقاعد وثيرة من طراز لويس السادس عشر، وستائر من المخمل، وسلة أخرى من الورود على الرف الرخامي ونافذة

كبيرة ذات طراز قديم مغطاة بستائر سميكة، واستدار آلان إلى الساقي:

ـ أرجو أن ترفع لنا الستائر يا جان.

ـ بالتأكيد مسيو سان كلير.

وجذب الستائر السميكة وربطها على الحائط. وشاهدت باريس تمتد أمامها، مدينة لامعة مضيئة. تعود إلى الحياة في وقت مغيب الشمس، وسارت صامتة مع آلان نحو النافذة. وتأملت بالمنظر الرائع أمامها. قوس النصر كان يشع تحت الأضواء. والتفتت نورما لآلان قائلة:

ـ آلان.. أنت تعني ما قلته.. أليس كذلك؟

ـ أعني ماذا؟

ـ أنا.. وأنت.

ـ أجل كنت أعني ما أقول.

والتقت عيناهما، يتفحصان بعضهما ويبتسمان. وكان الساقي يرتب الزهور على الرف الرخامي. فالتفت آلان إليه وقال:

ـ أحضر لنا شراباً يا جان، أعتقد أن السيدة تحب أن ترتاح قليلاً قبل تناول الطعام.

ـ بالطبع سيدي.

ـ أحضر لي شرابي المعتاد وللسيدة شراب النعنع البارد.

وقالت له نورما بعد أن خرج الساقي:

ـ أنا مدموزيل ولست سيدة.

فابتسم وقال:

ـ ليس لمدة طويلة.

ـ آلان..

ثم أصبحت بين ذراعيه، تحس بقوة جسده، وبذراعيه تسحقانها، وتلاشت كل مشاعر الوحدة والألم والبؤس دفعة واحدة. وهمس لها:

ـ يا عزيزتي.

ومرر أصبعه على وجهها الناعم وعلى كتفيها السمراوين من الشمس،

فتنهدت، وبشرتها تقشعر من لمسته، وتركت خدها يرتاح في راحة يده.

ـ تعالي لنجلس. انظري لقد أتى لنا جان بالشراب.. حتى أننا لم نلاحظه..!

ونظرت إلى يدها النحيلة ترتاح بين راحتي آلان، وأقفل أصابعه فوقها ونظر إليها.. فقالت له:

ـ آلان.. قبل أن أموت... قل لي، أين كنت في العشرة أيام الماضية، لأجل الله!

ـ كنت في ألمانيا، وما إن وصلت هناك حتى كان رئيس المتفاوضين معي منتظراً بالعقود. حتى أنني لم يكن لدي الوقت لأحلق ذقني، قبل أن أصعد إحدى طائراتي الهليوكوبتر متجهاً إلى بون.

ـ وقد اشتروا تصميماتك.. أليس كذلك؟

وهز رأسه:

ـ أجل.. لقد طلبوا عدداً مضاعفاً لما قدّرناه أول الأمر. وربما سيشترون أيضاً بعضاً من طائراتي النفاثة الخفيفة.. إذا قدّمت لهم عرضاً مغرياً.

وضحك مُقلداً لها:

ـ أوه.. آلان! أظنّ أننا سنصبح أثرياء يا نورما.

ـ حتى ولو كنا لا نملك سوى جنيهاً واحداً، فسأكون أغنى امرأة في العالم.

ـ ستجدينني ضعيفاً أمام الإطراء... الأمر غريب يا عزيزتي.. أنت الآن أكثر إثارة.. ترتدين كالآلهة، وهذا أجمل من البيكيني الذي كنت ترتدينه في البحر الأحمر.

ـ أنا لم أعد أحمرّ خجلاً. ولكنني كنت أفكر بنفسي الشيء عنك.

ـ صحيح؟

ـ انتظر! أخبرني عن تلك المرأة الفظيعة...

ـ جودي؟ إنها ليست فظيعة، إنها مجرد مستغلة للفرص.

ـ عندما قرأت بأنها ستتزوجك، ظننت أنني سأموت. كنت سأقتل نفسي يا آلان.

ـ في الوقت الذي كان هذا الخبر في الجرائد، كنت أشرح تفاصيل دقيقة عن الآلة الدقيقة لحوالي الستين من المهندسين الألمان في هايدلبرغ.

ـ ولكن لماذا لم تنفي الخبر؟ لماذا لم تقاضيها؟

ـ سيكون هذا هدر لوقتي! ولن أتنازل بإصدار أي تصريح عن علاقتنا. إضافة إلى أنني لم أعرف بالأمر سوى بعد أسبوع. عندما عدت إلى إنكلترا.

ـ كنت واثقة أن الأمر صحيح!

ـ ومتى لم تعودي واثقة؟

ـ عندما فتح جان الستائر، اتضح كل شيء أمامي فجأة.

ـ مثل فكرتك بالتسلل إلى يختي تحت اسم طوني هيستون.

ـ ألم يكن الاسم تيمي؟

ـ لا.. أنا واثق أنه كان طوني.

ـ هل سيكتشف ايفنز، الذي اشترى اليخت ماذا حدث على متنه يا ترى؟

ـ لقد غيّر اسمه إلى «اولاف».

ـ اسم سويدي جداً.

ـ والدي سيبني لنا «ميليسا» أخرى يا نورما، كهدية زواج لنا.

ـ أتشوق لمقابلته يا آلان.

ـ سنذهب إلى «بلايموث» في الغد، إنه متشوق جداً لرؤيتك، منذ أن أخبرته بأننا سنتزوج.

ـ ومتى كان ذلك؟

ـ يوم عدنا..

ـ آلان! لماذا لم تقل لي؟

ـ حسناً، كان الأمر يبدو غريباً يومها، لم يكن عندي فكرة عن الموضوع إلى أن خرجت الكلمات من فمي دون إرادة، ثم انشغلت كثيراً: لقاءات مع الناس، عقود للتوقيع، جنيهات للعد...

ـ كدت أضربك يوم وضعت ذراعيك حول جودي...

ـ انا لم أضع ذراعي حولها.. هي من لفّت ذراعيها حولي!

ـ كان يبدو عليك أنك تتمتع بهذا.

ـ لقد فاجئتني. وهذا كل شيء. وربما بدوت عندها أنني أستجيب.

ـ بدوت؟

ـ لقد كان ذلك هجوم علني. وذهلت به.

ـ ولا شيء غير هذا؟

والتقت عيناه عيناها وفيهما ضوء حب ساطع.

ـ لا شيء غير هذا يا نورما، وكل شيء قد مضى في طريقه الآن، كله وأنت ستمحين كل شيء من قلبي يا حبي.. كل الارتباك، كل المرارة، كل الألم.. لقد تلاشى كل شيء مثل السحر، حتى أنني لم أحسّ بذلك.

ـ آلان..

ـ جودي لا تعني لي شيئاً، ولم تعني شيئاً أبداً. كنت غبياً... غبي كبير حتى أنني لم أعرف ما بقلبي.. كنت أقاوم حبك منذ لحظة التقينا، أقاوم الحب الذي كان ينمو، أقاوم الرغبة بك التي كانت تحرقني...

ـ وأنا كنت خائفة منك، خائفة ومسحورة! لقد أحببتك منذ رأيتك في «سيرنجيتي»، وعلى متن «ميليسا» تأكدت من حبي لك، يا آلان...

ـ هه.. لقد كنت تقاوميني وكأنك قطة برية.

ـ بالطبع.. كل ما كنت ترغب به هو علاقة عابرة.

ـ وهذا مع الزمن كان سيؤدي إلى نفس النتيجة. ولكنني فهمت سبب تحفظك يا حبيبتي.. أعتقد أنني كنت متوحشاً في بعض الأوقات.

ـ متوحش؟ لقد بدا سفاك الدم وكأنه المبشر في مدرسة الأحد أمامك!

ولكن طيبتي الطبيعية أنقذتني من مصير أسوأ عليّ من الموت.

ـ أرجو أن لا يكون لديك أفكار سخيفة عن الزواج؟

ـ وما هذه الأفكار السخيفة، هل هي أفكار جيدة أم سيئة؟

ـ أتعنين بأنك لا تعرفين شيئاً؟ نورما!

ـ كل ما أعرفه أنني أحبك يا آلان، أحبك كثيراً لدرجة الألم.

ـ نورما.. أنت كل شيء لي في هذه الدنيا.. وأكثر. أحبك، أكثر مما أستطيع أن أقول لك.

ومد يده ليمسك بيدها، ونظر إلى السوار الفضي في معصمها:

ـ لدي صديق يعمل في صناعة الفضة هنا في باريس، إنه يصنع لنا قفلاً لهذا السوار.

ـ لن أخلعه مهما كان الأمر.

ـ أثق بك. سأعطيك مفتاح القفل، أيام الأربعاء وأيام الآحاد.

ـ ولماذا أيام الأربعاء وأيام الآحاد؟

ـ إنها أيام عطلتي.

ـ عطلتك؟ كنت أظن أنك رب العمل!

ـ يجب أن أكون القدوة.. آه، بالمناسبة.. سوف نتزوج الأسبوع القادم.

ـ الأسبوع القادم؟ ولكنني أكره أن تكون فترة الخطوبة طويلة!

ـ انظري... يا محبوبتي.. رئيس السقاة سيبكي الآن. الأفضل أن نأكل.

ـ تشرفنا يا مسيو...

فانحنى الساقي مبتسماً:

ـ عن إذنك مدام!

وقالت نورما وعيناها تلمعان:

ـ على فكرة يا حبيبي.. أنت مدين لي بأجري.

ـ أي أجر؟

- لقد وعدتني أن تدفع الأجر المتعارف عليه عند الاتحاد هل تذكر؟
- أوه.. ذلك الأجر.. سأعطيك أجرك بشكل لطيف آخر، ما رأيك؟
- بشكل آخر؟ وما الذي يجول في ذهنك بالضبط سيد سان كلير؟
- هذا النوع..

ومال نحوها، وعندما أنهى عناقه لها كانت ترتجف:

- أنتم أرباب العمل جميعكم سواء، أنتم تدوسون على رأس الفقير...

وأخرس احتجاجاتها بأصابعه وهو يضمها ثانية...

●●●

www.elromancia.com